

محمد قطب

مُعْرَكَةُ التَّفَالِيدِ

دار الشروق

مُعَرَّكَهُ التَّفَايِدُ

الطبعة السادسة عشرة
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٢٩٣٤٥٧٨ - ٢٩٢٩٢٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) - تليكس : SHROK UN 93091
بيروت : ص. ب. : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : حاشروق - تليكس : SHOROK 20175 LE

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقَدِّمَةٌ

في هذه البلاد اليوم وفي الشرق الإسلامي كله « هيجة » تتعلق بالتقاليد .
ومعركة دائبة لا يفتر لها أوار .

هذه التقاليد « البالية » .. هذه التقاليد « العتيقة » .. هذه
التقاليد « الرجعية » .. هذه التقاليد المتزمتة .. المتحجرة .. المتأخرة
المتعفنة .. ينبغي أن تحطم ينبغي أن تدك من القواعد .. ينبغي أن
تداس بالأقدام .

ينبغي أن ينشأ مجتمع جديد .. مجتمع متحرر .. مجتمع تقدمي ..
مجتمع متطور .. مجتمع منطلق من القيود .

كذلك تدور معركة التقاليد .

وهي معركة حامية الرطيس .. ميدانها .. كل ميدان .

ميدانها البيت والطريق .. والسينما والمدرسة .. والترام والسيارة .
والصحيفة والمجلة .. والخطبة والكتاب .. والريف والمدينة .

وجنودها الناس أجمعين .

جنودها الشبان والفتيات .. والآباء والأبناء ... والمدرسون
والطلاب .. والكتاب والكاتبات .. والأبرار والفجار .. وكل إنسانة
وكل إنسان ..

وقد كان أمرًا طبيعيًا أن تدور هذه المعركة فى مصر وفى الشرق الإسلامى كله .

أمر طبيعى بالنسبة للأحداث التى عاشها الشرق فى الفترة الأخيرة . وبالنسبة للتطورات والتقلبات التى عانتها هذه المنطقة فى عالم السياسة وعالم الاقتصاد وعالم الفكر وعالم الثقافة . . فى المفاهيم النظرية والتطبيقات العملية . . فى الكليات والجزئيات . . وفى كل شأن من شؤون الحياة .

لقد غفا العالم الإسلامى غفوة طويلة امتدت على الأقل قرنين من الزمان . . وكانت هذه الغفوة الطويلة نتيجة لفترة سابقة من الجمود والتحجر . . الجمود الفكرى والشعورى والعملى . . الجمود الذى أحال الأفكار قواعد ميتة بغير روح . . وأحال الوجدان مشاعر خاوية من الأصالة والصدق . . وأحال الأعمال أداء آليًا خاليًا من الحياة والإبداع .

الجمود الذى جعل العالم الإسلامى «يجتر» حضارته العظيمة الأولى ، وأفكاره وتطبيقاته القديمة بلا زيادة ، ولا يضيف إليها جديدًا حيًا يساوق خطو الزمن وخطو الحياة .

. . . ثم أفاق العالم الإسلامى من غفوته على هزات عنيفة مزلزلة .

أفاق على وقع أقدام الغرب المستعمر يقتحم عليه داره ، ويعيث فيها سلبًا ونهبًا وفسادًا وتحطيمًا لكل شىء مقدس وكل شىء عزيز .

أفاق . . . وقام ينفض عنه تراب القرون .

ينفض عنه الجهل والجمود والتحجر .

ينفض عنه الكسل والخمول والتواكل .

وينفض عنه كذلك كثيرًا من العقائد والأفكار .
وحدثت صدامات عنيفة بين الشرق والغرب .. وحدث كذلك
امتزاجات .
صدام بالسلام ، وصدام بالفكرة ، وصدام بالعقيدة .
وامتزاج في السياسة ، وامتزاج في الثقافة ، وامتزاج في التقاليد .
ولم يكن معبر واحد يعبر منه الغرب إلى الشرق . بل كانت معابر شتى
وطرائق متباينة .
فتارة هو غزو حربى يحمل معه عدة السلاح .
وتارة هو غزو اقتصادى يحمل رءوس أمواله التى يستثمرها لتخرج الذهب
من الشرق وتدره هنالك على المستعمرين .
وتارة هو غزو فكرى يحمل معه الكتاب والصحيفة والمعلم والمدرسة .
وتارة هو غزو روحى يستعمر العقائد فى داخل الأرواح .
وهو دائمًا غزو ... سواء وضحت منه المعالم أم كانت خافية على
الأفهام .

* * *

فى وسط الهزة العنيفة التى أصابت الشرق على يد الغرب المستعمر ... وفى
وسط الكفاح السياسى والاقتصادى والفكرى الذى تلا لحظة الإفاقة ... فى
خلال ذلك كله تمطمت كثير من تقاليد الماضى وأفكاره وعقائده ومفاهيمه .
وكان أمرًا طبيعياً أن تتحطم .
ويبحث المجتمع الناشئ عن تقاليد جديدة وأفكار وعقائد ومفاهيم ...
وكان أمرًا طبيعياً أن يبحث .

ومن خلال هذا البحث قامت المعركة العظمى . . معركة التقاليد .
هل نعيد بناء الماضي على أسسه التي كانت من قبل ؟
هل نبني مجتمعاً جديداً من أساسه بصرف النظر عن القديم كله ؟
هل يمكن أن يعود البناء القديم على أية صورة من الصور ؟
هل يمكن أن ينشأ مجتمع جديد لا صلة له إطلاقاً بالتراث القديم . . .
تراث البيئية ، وتراث الفكر ، وتراث العقيدة ؟ .
هل نمزج بين القديم والحديث ؟ .
وهل يمكن أن يحدث هذا المزج بين قيم متفاوتة ، ومعايير متباينة ،
ومفاهيم متعارضة ؟
بل هل هناك للبشرية كلها قديم يربطها ؟
هل هناك معايير ثابتة على الإطلاق ؟
هل ينبغي لأى جيل فى الأرض أن ينظر وراءه؟
وإن جاز ذلك فيما مضى ، فى المجتمع الزراعى الراكد الآسن المتأخر
المحدود الآفاق ، فهل يجوز فى المجتمع الصناعى ، بل العصر الذرى؟
هل يجوز للبشرية أصلاً أن تكون لها تقاليد ؟
أم أن هذه التقاليد معوقات مثبطة فى عصر الذرة وعصر الصاروخ . . .
عصر الانطلاق الكامل من كل قيد . . عصر الوثبة الكاملة فى الأرض وفى
الفضاء . . . عصر التحرر الكامل فى المادة وفى الإنسان ؟
ذلك بعض وقود المعركة . . .

وما نريد هنا أن نتعجل الحكم على واحدة من هذه المسائل .
وإنما نريد في هذا البحث الصغير أن نعرض المسألة في منشئها ، وفي
تطورها ، لعلنا على ضوء البحث أن نصل إلى الصواب .
ونرجو من الله التوفيق .

محمد قطب

جولة مع التاريخ

كيف إنهارت التقاليد في أوروبا؟

لقد كانت أوروبا ذات يوم قارة ذات تقاليد . . فكيف حدث فيها ذلك التطور الهائل الذى حطم تقاليدها وأطلقها منفصلة من القيود؟

إن دراسة التاريخ في أوروبا تفيدنا فائدة كبيرة في دراسة المعركة الحامية الدائرة اليوم في الشرق الإسلامى . فأوروبا بشر ونحن بشر . . وبين البشرية كلها سمات مشتركة ، وبينها صلات رحم قريبة . ومن ثم يستطيع الإنسان فى أى بقعة من الأرض أن يرقب خطوات أخيه الإنسان . . فىأخذ منها القدوة أو يأخذ منها عبرة التجربة وموعظة التاريخ .

* * *

وفى يوم من الأيام كانت أوروبا - فى مجموعها - مسيحية . وأيا كان تغلغل العقيدة فى نفوس الأوروبيين . . عميقاً أم سطحيًا . . جادًا أم لاهيًا . . أصيلاً أم تقليديًا . . وجدانيًا أم فكريًا . . فلقد كانت أوروبا قبل ثلاثة قرون أشد تمسكاً بعقيدتها ولا ريب مما هى اليوم ، وأشد تأثرًا بمفاهيمها وتصوراتها وأفكارها وإيجاءاتها مما هى فى عصرها الحديث .

ونريد فى هذه الجولة السريعة أن نتبع خط الزمن فى القرنين الأخيرين فى أوروبا ، لندرس عوامل التطور واتجاه الأحداث . ونريد - لأسباب ستبين بعد

لحظة - أن نرسم خطأ واضحًا بين تصورات الناس وأفكارهم قبل دارون، وبعد دارون.

وليس في التاريخ خطوط حاسمة بطبيعة الحال فكل خطوطه متداخلة متدرجة بطيئة التحول . ومع ذلك فبعض الخطوط بارز على صفحة الزمن ، شديد الوضوح .

ولئن كانت أوروبا في تاريخها كله غير عميقة التدين - في مجموعها - فلقد كانت التصورات الدينية المسيحية هي التي تسيطر على التفكير الأوروبي ، وتوجه - على الأقل - جانبًا من منهج الحياة .

كان التصور المسيحي يقول إن هناك إلهًا هو الذي خلق الكون والحياة ، وخلق بعد ذلك الإنسان . وكان هذا التصور يقول إن للخالق قصدًا من خلق الكون والحياة والإنسان ، وإن للإنسان خاصة دوره الضخم في هذه الحياة . لقد خلقه الله على صورته . وكرمه وفضله على كل كائنات الأرض . وأعطاه مزايا ليست لغيره من المخلوقات . منها النطق ، ومنها التفكير ، ومنها الروح .

وكان هذا التصور فوق ذلك يقول إن الله أزلى ثابت ، وإن قصده من خلق الإنسان هو كذلك قصد أزلى ثابت . ومن ثم يرتبون على ذلك - ترتيبًا وجدانيًا في الغالب وفلسفيًا أحيانًا - أن حياة الإنسان ثابتة ، ونظمه ثابتة ، وغرائزه ثابتة ، وعقائده وأفكاره وتقاليده ثابتة .

وكان يغيرهم بفكرة الثبات هذه أن الحياة في المجتمع الزراعي الإقطاعي كانت فعلاً ثابتة النظم والقواعد والأفكار والتقاليد . . وأنها ظلت على ثباتها هذا فترة تقرب من ألف عام .

وكانت « معلوماتهم » في الفلك والطبيعة وعلم الحياة ، تقول لهم إن كل شيء ثابت لا يتحول عن صورته . فالثبات بأنواعه هو منذ خلقه الله على الأرض لا يتغير . والحيوانات بأجناسها وأنواعها وفصائلها هي كما خلقها الله على صورها الموجودة عليها . والنجوم والأفلاك والأقمار والأرض على هيئتها منذ الأزل لا تحوير فيها ولا تبديل حتى يحل بها ما يحل يوم القيامة .

والإنسان كذلك . . منذ آدم إلى اليوم . . . و الإنسان . كل شيء فيه ثابت : جسمه وعقله وروحه .

ولقد يفترق إنسان عن إنسان ، وشعب عن شعب ، وجيل عن جيل في بعض السمات الشخصية وفي مدى العلم أو الجهل ، ومدى الهدى أو الضلال . ولكن الإنسان - في مجموعه ، وفي جميع حالاته - هو الإنسان . والدائرة التي يدور فيها واسعة حقًا ومتباينة الأجزاء حقًا ، ولكنها في النهاية هي الدائرة الإنسانية المرسومة منذ الأزل لهذا الإنسان .

« الثبات » هو أصل الحياة وجوهرها الذي لا يتغير بمر الدهور.

وفي ظل هذه الفكرة « الثابتة » كانت للناس تقاليد موروثة وثابتة . تتغير قليلا وتتحوّر من جيل إلى جيل ، ولكنها في مجموعها ذات أصول ثابتة ومفاهيم ثابتة . تقاليد تتعلق بالرجل والمرأة والطفل والأسرة والمجتمع والحياة . . .

وسرى في حس الناس أن هذه التقاليد مبنية من جانب على « الغرائز الإنسانية » الثابتة الراسخة . . . ومبنية كذلك على إرادة الله . مبنية على الدين . وكان الدين دعامة قوية من دعائم التقاليد . فكلمة الله للبشر كلمة ثابتة . وهي كلمة مقدسة واجبة الرعاية والاحترام على مر الأجيال .

وفي الدين مثل أخلاقية معينة ، تتحتم رعايتها . وقد يبعد الناس عنها قليلا أو كثيرا في حياتهم العملية . بل قد يتنكرون لها في معاملاتهم الشخصية تنكرا . ويخرجون عليها في بعض الأحيان علانية . ومع ذلك تظل - من حيث المبدأ - واجبة الرعاية ، لا ينكر المنكرون حجيتها وأهليتها ، وإن تعللوا في خروجهم عليها بشتى المعاذير .

ومن ثم كان الدين والأخلاق والتقاليد «ربطة» واحدة ووجهة واحدة . ومن ثم كذلك كان الدين والأخلاق والتقاليد في حسمهم أمورا ثابتة لا تتغير بتغير الزمن ، ولا تفعل فيها الأحداث .

* * *

وفي سنة ١٨٠٩ ولد دارون . وفي سنة ١٨٥٩ نشر كتابه « أصل الأنواع » وفي سنة ١٨٧١ نشر كتاب « أصل الإنسان » .
ورُسم خط واضح من خطوط التاريخ . .

قبل ذلك بقرون كان كوبرنيكوس وجاليليو قد اصطدما بفكرة الكنيسة الأوروبية عن الكون ومركز الأرض منه ، وهيتها ودورانها . وذاق العالمان النكال والتعذيب بسبب موقفهما من الأفكار « المقدسة » « الثابتة » التي كانت تحتضنها الكنيسة وتنافح عنها بوصفها جزءا من العقيدة وأصلا من أصول الدين . .

وبذرت هناك بذور البغضاء بين العلم والكنيسة ، وبدأ العلماء ينفرون من رجال الدين .

ولكن قرونا مضت رغم ذلك والأمور على حالها ، والجماهير واقفة في صف الدين والكنيسة وفي صف الأخلاق والتقاليد .

حتى ظهر دارون . . ونشر نظريته في التطور ، ونظريته في أصل الأنواع وأصل الإنسان .

هنالك زلزلت العقيدة من منبتها ، والأفكار من أساسها .

لقد جاء دارون يقول إنه لا شيء « ثابت » على وجه الأرض : لا النبات . ولا الحيوان . . ولا الإنسان .

وليس هناك قصد ثابت في الخليفة . . بل لا قصد على الإطلاق .

والخالق - الذى هو الطبيعة - لم يقصد في الأصل أن يخلق الإنسان ، إنما هو قد جاء هكذا نتيجة لعملية التطور البطيئة التى استغرقت ملايين السنين .

ولم يكن « الإنسان » فى منشأه إنساناً كما هو اليوم . . وإنما أصله حيوان .

لم يكن ينطق ، ولم يكن يعقل ، لم يكن يقف على قدمين إثنين ، وبطبيعة الحال لم تكن له تلك الخاصية التى أسبغها عليه التصور الدينى . . لم تكن له « روح » .

حيوان . . .

وهزت نظريته المجتمع الأوروبى كله ، وقامت قيامة الكنيسة .

قالت الكنيسة : إن دارون كافر وملحد . وقال دارون : إن رجال الدين مخرفون .

وقامت معركة عنيفة لم يهدأ أوارها حتى كان كثير من العقائد قد إنهار وإنهال عليه التراب .

لقد وقفت الجماهير فى أول الأمر فى جانب الكنيسة . . فى جانب العقيدة التى كانت عزيزة عليها وإن لم تعمل بمقتضياتها . . فى جانب التقاليد الروحية والفكرية . . . فى جانب موروثاتها العقلية والوجدانية . . وفى جانب

اعتزازها بشخصيتها . . اعتزازها بأصلها « الإنسانى » الذى نفى عنه دارون الإنسانية وألحقه بالحيوان .

. ولكن موقف الجماهير بعد ذلك تغير . .

فلئن كان قد عز عليها أن يسلبها دارون إنسانيتها ، ويردها إلى أصل حيوانى ، فقد أخذت تشمت فى الكنيسة ورجال الدين ، ووجدت أن الفرصة سانحة للتخلص من نيرها المرهق وسلطانها البغيض .

لقد كانت الكنيسة فى العصور الوسطى قد تحولت من معنى الرحمة السابعة والروحانية الصافية التى توحى بها طبيعة المسيحية . إلى سلطان دنيوى قاهر مدل . وراحت تفرض على الناس ألوانًا مختلفة من الإتاوات . إتاوات مالية وروحية وفكرية . تفرض عليهم الضرائب المرهقة والعشور التى تثقل كاهلهم ، وتفرض عليهم الخضوع المدل لرجال الدين ، وتفرض عليهم أفكارًا معينة بوصفها كلمة السماء من خالفها فهو ملحد وخارج على الدين .

وجدت الجماهير فرصة سانحة للإفلات من الغول البشع الذى يطاردها فى يقظتها ومنامها ، فانتهزت الفرصة ودخلت المعركة مهاجمة بعد أن كانت مدافعة . وأخذت تحصب الكنيسة بما تساقط فى الأرض من الأنقاض . . أنقاض العقيدة ، وأنقاض الفكر ، وأنقاض «الروح» .

وأيا كانت طبيعة المعركة ودوافعها فقد كانت من المعارك الحاسمة فى التاريخ ، وتركت فى حياة الناس نتائج خطيرة بالغة الخطورة ، وما يزال «المد» الذى أحدثته فى أوروبا يفيض حتى اللحظة بأخطر الأمور .

أول نتائجها زلزلة الإيمان بالله والعقيدة .

وثانى نتائجها زلزلة الإيمان بالإنسانية والإنسان ورفعته وسموه وروحانيته .

وثالث نتائجها زلزلة الإيمان « بثبات » أى نظام من النظم أو قيمة من القيم أو فكرة من الأفكار .

ورابع وخامس وسادس . . زلزلة كل شىء كان راكزاً من قبل ، وتحطيم كل بنية راسخ الأساس .

فكرة الله الخالق المدبر المريد ذى القصد لقيت أول زلزلة مباشرة على يد دارون فى قضية خلق الإنسان ، حين نفى دارون القصد ، ونفى الخلق المباشر للإنسان بيد الله وأرجعه إلى عملية التطور ، ونفى أن ثمة شيئاً فى كيان الإنسان يمكن أن يكون « نفخه الله فيه من روحه » إذ قرر على سبيل الجزم الحيوانية المطلقة لأصل الإنسان .

ومن هنا اضطر المتدينون بعد المعركة العنيفة التى اعتملت فى وجدانهم وضمايرهم ، أن يؤمنوا بالله - إن لم يكن من ذلك بد - كفكرة وجدانية غير منطقية، لا دخل لها بالواقع . . الواقع العلمى والواقع العملى والواقع المادى . . فليكن الله فكرة تشيع الوجدان الدينى وتسبح بها الروح فى تأملاتها، ولكن لا دخل له - سبحانه - بعملية الخلق وقوانين الطبيعة وسير الأمور فى الأرض . أو أنه - بالكثير - قد خلق الكون وأودعه سننه وطاقاته ، ثم تركه يتطور، حسبما توصله إليه طاقة التطور ، دون تدخل منه سبحانه فى النتائج ولا إرادة .

أما غير المتدينين . . الذين كان التدين عبئاً مفروضاً عليهم بحكم التقاليد وسيطرة الكنيسة ورجال الدين . . فقد وجدوا فى نظرية دارون مهرباً من الدين كله، ومخلصاً من فرائضه وقيوده . فلما واجهتهم المشكلة التى تواجه كل عقل مؤمن أو غير مؤمن : مشكلة الخلق الأول ونشأة الحياة على سطح الأرض ، هربوا من « الله » إلى « الطبيعة » التى قال عنها دارون : «إنها تخلق كل شىء . .

ولا حد لقدرتها » . فكانت الطبيعة بالنسبة إليهم إلهًا جديدًا يعبدونه . إله له معظم صفات الله ، إلا القصد والإرادة . وفوق ذلك ليست له كنيسة تطارد الناس بالإتاوات ، وتحير عقولهم بالمشاكل ، وتفرض عليهم قواعد الخلق والسلوك . فهو إذن إله لا يلزم الناس بالتطهر ، ويستطيع عباده أن ينفلتوا من القيود .

ولم تكن هذه هي الزلزلة الوحيدة لفكرة العقيدة . .

فقد تغلغلت فكرة « التطور » في أفكار الناس ووجداناتهم ، وأخذت المكان الذي كانت تحتله من قبل فكرة « الثبات » .

وما دام كل شيء يتطور ، ولا شيء يثبت على حاله - كما قال دارون - فلماذا لا يشمل التطور فكرة الله ذاتها وفكرة العقيدة ؟

بل لقد تطورت العقيدة فعلا على مدار التاريخ . .

وصحاح العلماء إلى « إكتشاف جديد » في عالم الدين . . لم يكن الأمر في مسألة الدين أمر ضلالة وثنية انتهت إلى عقيدة صحيحة ثابتة مهتدية إلى الله . وإنما كانت فكرة « متطورة » بدأت بعبادة الأب ، ثم عبادة الطوطم^(١) ، ثم عبادة الوثن ، ثم عبادة الله والإيمان بالوحي والرسالة . وغدا . . أو اليوم « تتطور » الفكرة من أساسها ، ولا تعود عبادة الله . . ولتكن مثلا عبادة للطبيعة أو غيرها من المعبودات . . أو لا عبادة على الإطلاق !

(١) الطوطم هو (Totem) معبود تعبدته القبيلة ، ويكون في الغالب حيوانًا معينًا تعتقد القبيلة أن دماءه تجرى في كل فرد من أفرادها . وهم يقدسونه فلا يذبحونه ولا يقتلونه إلا في مناسبات دينية خاصة ، وعندئذ يشربون دماءه لتجربى في عروقهم من جديد ، ولكل قبيلة طوطمها الخاص .

وغير هذا وذلك وجد اتجاه عقلى يميل إلى إنكار كل شىء ، وعدم الإيمان إلا بما تثبته التجربة أو تدركه الحواس . .

لقد قال الناس لأنفسهم - أو قال « العلماء » أولاً وتبعتهم الجماهير بعد ذلك - لقد كنا نؤمن بأشياء كثيرة ورثناها عن أجدادنا أو لقمناها لنا الكنيسة ورجال الدين ، وقد « ثبت » أنها غير صحيحة ، ثبت أن الأرض ليست مركز الكون ، وكانت الكنيسة تقول ذلك . وثبت أن الأرض كروية وكانت الكنيسة تقول : إنها منبسطة . و« ثبت » أن الإنسان من أصل حيوانى وكانت الكنيسة تقول : إن الله خلقه على صورته ، خلقاً إبداعياً غير متعلق بشىء قبله أو بعده . . وإذن فلنترك عقائدنا الموروثة جملة فإنها مجموعة من الخرافات . ولنبدأ من جديد . بلا عقائد سابقة . بلا أفكار مسلم بها . لنبدأ من نقطة الصفر . لا نؤمن إلا بما نراه بعيوننا وتدركه حواسنا وتجاربنا . . ولننح عن أذهاننا فكرة الله وتدخله فى الخلق أو إرادته منه . فلندرس الكون فى معزل عن الله . فنحن لم نر الله . ولم نر كيف تدخل فى الكون . فليظل الله لمن يريد أن يؤمن به فى خياله . أما نحن - الواقعيين - فلن نؤمن بشىء لا تدركه الحواس .

كذلك تزلزلت فكرة الدين .

أما « الإنسان » فقد فقد كل ما كان التصور الدينى قد أسبغه عليه من رفعة وتفرد وروحانية وأخلاقية ، مردها جميعاً إلى نفخة الله فيه من روحه وقصده الأزلّى فى خلقه ، وهما اللذان قالت الداروينية إنها خرافة صنعتها الأساطير . ونزعت عنه « القداسة » التى كان يستمدّها من خلق الله له على صورته ، وعنايته به - سبحانه - فى إفراده بشتى المزايا . وخاصة بتلك الشفافية الروحانية التى ترفعه على سائر الحيوان ، وصار من جهة أخرى مطلقاً من كل قواعد الخلق وقواعد المجتمع وقواعد التقاليد ، لأن هذه كلها « ثوابت » زائفة لا ثبات

فيها ، وناشئة عن « ضلالة » سابقة مستمدة من الدين .

كل شيء يتطور . والمجتمع كذلك يتطور . . . تتطور نظمه وأفكاره ومفاهيمه .

فإذا كانت « الأخلاق » بمفهومها التقليدي شيئًا جميلًا في الماضي ، ومناسبًا لمرحلة معينة من التطور ، فليس من الضروري أن تكون اليوم جميلة ولا مناسبة . . . لأن المجتمع قد تطور . . . و « المجتمع » هو الذى صنع هذه الأخلاق من قبل . . . وليس الله . . . وليس العقيدة - وإن كان الناس قد أسندوها من قبل غفلة منهم إلى الله والعقيدة - فالمجتمع إذن هو صاحب الشأن في تعديلها أو الإبقاء عليها . . . وقد قرر للتعديل .

وإذا كانت « الأسرة » بمفهومها التقليدي شيئًا جميلًا في الماضي ، ومناسبًا لمرحلة معينة من التطور فليس من الضروري أن يكون هذا المفهوم اليوم مناسبًا ولا جميلًا . . . بل ليس من الضروري أن توجد أسرة على الإطلاق . . . فليس الله الذى صنع الأسرة كما فهمت الجماهير خطأ من قبل ، وإنما هى احتياجات المجتمع . . . والمجتمع حر اليوم فى الإبقاء على الأسرة أو تفكيكها . . . وقد قرر التفكيك .

وإذا كانت المرأة من قبل زوجة وأما ولا زيادة ، فليس ذلك أصلاً من أصول الأشياء . ولا مبدأ ثابتاً لا يتغير . . . وإنما هى فكرة اجتماعية نشأت عن أسباب عدة . . . والمجتمع الذى أحاط هذه الفكرة من قبل بسياج من الصيانة، بل القداسة الزائفة . ودس فيها اسم الله والدين ، هو المجتمع الذى يحطم اليوم هذه الفكرة ، ويرفع سياجها الزائف ، ويطلقها بلا سياج .

وإذا كانت « العفة » الجنسية قدسًا من أقداس الماضى ، فليس ذلك قيمة

من القيم الثابتة الراسخة في حياة البشرية . . . إنها هي كانت كذلك في فترة من الزمن . . . وليس ما يمنع أن « تتطور » من أساسها ، أو أن تصبح - إذا أراد المجتمع - رذيلة ينفر منها المتحضرون .
كذلك تزلزلت فكرة الأخلاق والتقاليد .

وزاد من شدة زلزالها أن الحاجز الأكبر الذى كان يمنع تأرجحها من قبل - إلى جانب العقيدة في الله - كان هو الإيمان برفعة الإنسان وروحانيته ، والاستحياء من « الهبوط » إلى مستوى الحيوان ، على اعتبار أن الإنسان مخلوق متميز متفرد . لا تقاس حياته وأعماله بمقياس الحيوان ، ولا ينبغى له أن ينساق مع غرائزه حيث تميل . . . فالיום قد انزاح هذا الحاجز . . . « حاجز الإنسانية » وصار الإنسان في عرف نفسه حيوانًا عريق الأصول في الحيوانية . فهو إذن ليس في مستوى « رفيع » « يهبط » منه . . . وإنما هو دائمًا في « طور » يؤدي إلى طور آخر . . . ولا رفعة ولا هبوط في مقياس الحيوان .

* * *

ومع الداروينية ولد التفسير المادى والتفسير الاقتصادى للتاريخ . يقول التفسير المادى للتاريخ، أولاً: إن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام . ويقول ثانيًا : إن القوى المادية - أو القوى الاقتصادية - هى التى تكيف الحياة البشرية ، وتعطيها طابعها ، وتنشئ أفكارها ومفاهيمها وعقائدها . . . حسب درجتها من التطور ، فإذا انتقلت البشرية من طور إلى طور - بحكم قوة التطور الدائمة المفروضة على الإنسان من خارج نفسه ، والتى لا علاقة لها بإرادته الذاتية - فإن صورة الحياة تتغير ، ومشاعر الناس تتغير ، وأفكارهم ومفاهيمهم وعقائدهم تتغير ، ويتغير كل شيء في المجتمع من أخلاق وعادات وتقاليد تغيرًا حتميًا لا يملك السيطرة عليه أحد لأنه ليس من صنع

البشر، وإنما هو من صنع البيئة المادية أو القوى الاقتصادية^(١).

ويقول ثالثاً : إن الأطوار التي تنتقل فيها البشرية هي في ذاتها أطوار حتمية لا فكاك منها ولا اختيار فيها . فهي مثلاً تنتقل من الصيد إلى الرعى إلى الزراعة إلى الصناعة . . . وهي مثلاً تنتقل من الخرافة إلى التدين . . إلى العلم ، وكل طور من هذه الأطوار له عقائد محددة وعادات محددة ترسمها البيئة . . . وحين ينتقل المجتمع من حالة إلى الحالة التالية لها - وهو انتقال حتمى - يأخذ بصفة حتمية كذلك مفاهيم الحالة الجديدة وأفكارها وعقائدها بلا اختيار .

ويقول أخيراً - وهو خلاصة القول السابق - : إن الأفكار والمشاعر والعقائد ليست هي التي تحرك الناس أو ترسم لهم سلوكهم العملى في واقع الحياة، وإنما هي نتيجة لاحقة لكل وضع اجتماعى أو اقتصادى . فهي ليست قوة موجهة ، فضلاً على أنها لا تثبت على حال واحد ، فهي متطورة على الدوام .

يقول ماركس : « في الإنتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى لهم عنها . وهي مستقلة عن إرادتهم . . فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذى يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة . ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم ، بل إن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم » .

ويقول « فردريك انجلز » : « تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتى : وهو أن

(١) التفسير المادى والتفسير الاقتصادى للتاريخ أخوان أو أبناء عمومة . وكل الفرق - إن كان هناك فرق - هو أن التفسير المادى للتاريخ يجعل الأمور في يد القوى المادية على إطلاقها، بينما التفسير الاقتصادى للتاريخ يختار المظهر الاقتصادى للقوى المادية ويجعل في يديه قياد الأمور .

الإنتاج وما يصحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذى يقوم عليه كل نظام اجتماعى . فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لا يجوز البحث عنها فى عقول الناس ، أو فى سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين ، وإنما فى التغيرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل» .

ولسنا هنا نناقش الآراء ، وإنما نستعرض التاريخ^(١) .

لقد مد هذا التفسير المادى للتاريخ فى موجة التفسير المادى الحيوانى للإنسان .

فليس يسعى الإنسان للحق والعدل الأزليين ، وإنما يسعى إلى الطعام . لا عقيدة ولا مبادئ ولا مثل ولا مشاعر . . وإنما حيوان يعيش فى نطاق المعدة . . ويسيره البحث عن الطعام .

وإن سعى إلى الحق والعدل فلا فائدة . . فالناس محكومة بقوانين حتمية هى المادة والاقتصاد .

« ليس شعور الناس هو الذى يكيف وجودهم ، وإنما وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم » .

لا يساوى شيئاً أن يعتنق الناس فكرة أو يؤمنوا بعقيدة . كل ذلك باطل . كله أوهام . خيالات لا تسمن ولا تغنى من جوع . لن يغير ذلك شيئاً من « واقع الحياة » . الواقع الذى يحدده « أسلوب الإنتاج » .

الدين والأخلاق والتقاليد ليست قيمة ذاتية قائمة بذاتها ، وإنما هى مجرد

(١) ستناقش هذه الآراء فى الفصل القادم « حقائق وأباطيل » .

انعكاس للوضع الاجتماعى والاقتصادى القائم فى المجتمع . وفوق ذلك وأهم من ذلك أنها ليست ثابتة . فهى تتغير كلما تغيرت وسائل الإنتاج . بل فوق ذلك وأهم من ذلك أن الإنسان ذاته متغير . ليس ثمة كيان ثابت اسمه الإنسان . ليست هناك غرائز ولا دوافع فطرية . الإنسان هو انعكاس البيئة ، ليس فقط فى مفاهيمه وعقائده وعاداته ، بل هو كيانه النفسى الداخلى كذلك . كل جزء من نفسه قابل للتغير . علاقاته الفردية والاجتماعية والجنسية . . والملكية والزواج والأسرة . . كل شىء . . كل شىء يمكن أن يتغير . وليس لأى شىء مقياس يقاس به إلا درجة تكيفه مع بيئته . . ومن ثم فالمقياس الثابت غير موجود .

* * *

ولم تكن الموجة العنيفة التى أحدثتها نظرية دارون قد هدأت بعد ، بل لم تكن قد بلغت آخر مداها حين ظهر « فرويد » .

ولد فرويد سنة ١٨٥٦ . . أى بعد دارون بما يقرب من نصف قرن . وبصرف النظر عن مدى إخلاصه لعلمه أو إخلاصه ليهوديته^(١) فقد تأثر تأثراً كبيراً بالنظرة الداروينية إلى الإنسان ، وكان فى الواقع امتداداً قوياً لها فى مجال الدراسة النفسية ، وعلم النفس التحليلي .

جاء فرويد يفسر السلوك البشرى على أساس حيوانية الإنسان المطلقة التى لا ظل فيها « لإنسانية » هذا الإنسان أو رفعته وتميزه . جاء يقول : إن « الجنس » بمعناه الحيوانى الخالص ، بمعناه الحسى الشهوانى ، بمعنى حركات الجسد ومشاعر الجسد ، هو المحرك الأول والدافع الأصيل لكيان البشرية .

(١) انظر بالتفصيل فصل فرويد « فى كتاب الإنسان بين المادية والإسلام » .

الجنس هو كل شيء وكل شيء نابع من الجنس .

الطفل يرضع ثدى أمه بلذة جنسية . ويتبول ويتبرز بلذة جنسية ويجرك عضلاته بلذة جنسية . . ويرتبط بأمه بشعور جنسى « كما ترتبط الطفلة الأنثى بأبيها بشعور جنسى » ويظل هذا الشعور الجنسى نحو الأم « أو الأب فى حالة الأنثى » ينمو مع نمو الطفل حتى تحدث العقدة الأولى فى حياته ، عقدة أوديب (أو عقدة إلكترا عند الطفلة الأنثى) التى تنشأ من صراع الطفل بين هذا العشق الجنسى للأم وبين سيطرة الأب الجنسية على الأم « أو العكس فى حالة الأنثى » وتظل هذه العقدة تعمل فى نفس الطفل وتعذبه حتى يتخلص منها بطريقة ما . . يتخلص منها بطريق الكبت من جهة ، والتلبس بشخصية الوالد من جهة ثانية .

وحين يكبت الطفل شعوره الجنسى نحو أمه ، وحين يأخذ - فى لا شعوره - مكان الوالد ويتلبس بشخصيته ، يأخذ فى النمو النفسانى ، ويبدأ يتولى بنفسه كبت مشاعره الداخلية ، ويفرض على نفسه الأوامر والنواهى التى يمتصها من المجتمع المحيط به ، ويتحكم تدريجياً فى سلوكه . ويعبر فرويد عن ذلك بنشأة « الذات العليا » أو نشأة الضمير . ولكن هذه العملية فيمايقول فرويد عملية خطيرة ، حتى مع لزومها للنضوج النفسانى للطفل^(١) لأن الكبت الجنسى المصاحب لعقدة «أوديب » ، يحدث آثاراً ضارة فى النفس الإنسانية ، إذ هو يقف فى طريق القوة الحيوية المتدفقة وينشئ لها السدود والقيود ، فتؤدى إلى انحرافات نفسية وعقدة مرضية واضطرابات عصبية ، تدمر الكيان البشرى فى النهاية .

(١) قال فى كتاب Three contributions to the sexual theory ص ٨٢ :
« وهكذا يحصل الإنسان على قوة نفسية كبيرة من استعداد نفسه هو فى ذاته خطير » .

وهذا التفسير الجنسي للسلوك البشرى ليس تفسيراً للسلوك الفردى وحده ، وإنما هو كذلك محور الحياة الاجتماعية كلها منذ بدء التاريخ البشرى حتى اليوم ، يشمل الفرد والأسرة والقبيلة والعشيرة والجماعة والمجتمع كله ، كما يشمل الدين والأخلاق والتقاليد والفن والفكر والفلسفة . . وكل نشاط البشرية .

كان دارون قد قال : إنه فى عالم البقر تنطلق الثيران الفتية الشابة تريد أن تنزوا على أمها فتمنعها سيطرة الأب المسيطر على القطيع . فتنشب معركة حامية بين تلك الثيران الفتية والأب الشيخ يتكفل فيها الأبناء كلهم ضد أبيهم حتى يقتلوه . ثم يقتلون فيما بينهم ، كل منهم يريد أن يستخلص الأم لنفسه ، فيموت الضعاف فى المعركة ، أو يعزلوا ، ويبقى ثور واحد فتى يستولى على الأم ويصبح هو قائد القطيع .

وجاء فرويد ينقل عن دارون هذه القصة ، ولكنه ينقلها من عالم الحيوان إلى عالم الإنسان متأثراً كما قلنا بالنظرة الحيوانية للإنسان ، وينزع القداسة التى كان يضيفها عليها من قبل تفرده وتمييزه عن عالم الحيوان .

جاء يقول : إنه حدث فى البشرية الأولى ما يحدث فى عالم البقر . فى عالم الحيوان .

أحس الأبناء برغبة جنسية نحو أمهم التى ولدتهم ، ولكن سطوة الأب كانت تمنعهم من هذه الشهوة العنيفة . فتآمر الأولاد على قتل أبيهم ليتخلصوا من سطوته ويستأثروا بأمهم . . ونفذ الأولاد ما تأمروا عليه .

ولكنهم ما كادوا يفعلون ذلك حتى أحسوا بالندم ، وتملكهم الشعور بالخطيئة ، فصمموا على تقديس ذكرى أبيهم الذى قتلوه وبذلك بدأت عبادة الأب .

ثم امتزج شخص الأب في شعورهم ببعض أنواع الحيوان - وتلك عملية نفسية يقول فرويد إنها طبيعية - فقدسوا هذه الحيوانات ومنعوا قتلها، وذلك تكفيراً عن قتل أبيهم ورغبة في تقديس ذكراً. وبذلك نشأت الديانة الطوطمية.

ثم يقول فرويد : « وكل الديانات التي جاءت بعد ذلك هي محاولات لحل المشكلة ذاتها » إحساس الأبناء بالجريمة « وهي تختلف بحسب مستوى الحضارة التي ظهرت فيها ، والوسائل التي تطبقها ، ولكنها جميعاً تهدف إلى شيء واحد ، وهي رد فعل لنفس الحدث العظيم « قتل الأب » الذي نشأت عنه الحضارة ، والذي لم يدع للإنسانية منذ حدوثه لحظة واحدة للمراحة^(١) .
هذا عن الدين .

أما الإخلاق فيقول عنها : « إن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى في درجتها الطبيعية العادية »^(٢) .

وأما الحضارة ففي كتاب (The Ego & The Id) ص ٨٥ يتحدث عن :
« التعارض القائم بين الحضارة وبين النمو الحر للطاقة الجنسية » .

وفي كتبه الأخرى كلها التي تضيق هذه الجولة السريعة عن استقصائها^(٣) يروح يُرجع كل لون من ألوان النشاط البشري إلى أصله الجنسي في نظره، ثم يشرح التعارض بين : التنظيمات الاجتماعية كلها ، وبين ما يسميه « النمو الحر للطاقة الجنسية » .

ونحن هنا لا نناقش الآراء وإنما نستعرض التاريخ .

(١) كتاب "Totem and Taboo" ص ١٥٤ .

(٢) كتاب "The Ego and the Id" ص ٨٠ .

(٣) انظر بالتفصيل كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » .

وقد فعلت هذه الموجة العاتية فعلها ، وانتشرت كالنار في الهشيم .
انتشرت تحطم الدين والأخلاق والتقاليد ، وتلوث كل تراث البشرية .

هذا هو الإنسان - كما يرسمه فرويد - عريان . . . عريان من كل خلق
ومن كل دين ومن كل شعور نظيف . والملابس التي تخفى عوراته الحسية
وعوراته النفسية والمعنوية ، كلها ستار زائف لا يمثل حقيقة ولا قيمة من القيم
الجديرة بالاعتبار . . . إنها كبت . إنها عوائق تعوق « النمو الحر للطاقة
الجنسية » إنها أغلال . . . والحقيقة الوحيدة الجديرة بالاعتبار ، والحقيقة
الوحيدة التي كل ما عداها زائف وباطل ينبغي أن يزول . . هذه الحقيقة هي
الجنس . هي الحيوان العريان .

وقد حدث شيء شبيه بما حدث مع دارون من قبل . . . فقد وقفت
الجماهير أول الأمر موقف الخصومة من فرويد ، وهاجمته في عنف . . . وقفت -
إلى حد ما - في صف عقيدتها الدينية « التقليدية » التي لم تكن بعيدة الغور في
واقع الأمر ، ولا كانت عقيدة واعية . . . ووقفت في صف أخلاقها التقليدية
كذلك التي لم تكن في الحقيقة عقيدة يؤمن بها الناس عن اقتناع ووعى .
ووقفت بشدة في صف الصورة « الإنسانية » التي تتصورها عن نفسها ، وتعتر
بها أياً اعتزاز ، والتي جاء فرويد ليجرحها ويلوثها ، ويضفي عليها قذارة
الحيوان .

ولكن موقف الجماهير بعد ذلك تغير .

لقد تلقف الشباب خاصة تعاليم فرويد وتشبثوا بها تشبثاً ، وراحوا يوسعون
رقعتها في كل اتجاه .

كانت هذه التعاليم إنقاذاً لهم من تزمّت التقاليد الدينية التي كانت سائدة

من قبل وصحيح أن هذه التقاليد لم تكن مرعية كل الرعاية ، ولكن ذلك لا يخفف من وقعها على النفس . فليس المهم في مثل هذه الحالة - كما قال فرويد صادقاً- أن ينفذ الإنسان تعاليم الدين في سلوكه الواقعي أو لا ينفذها ، وإنما المهم هو مدى إحساسه بها في لاشعوره ، ومدى ما توحى له بأن الأمر الذى يقدم عليه خطأ أو صواب .

وقد كانت التقاليد الدينية السائدة من قبل في أوروبا عنيفة متزمتة، تنظر إلى الجنس على أنه قذارة دنسة لا يجوز أن يلمسها القلب النظيف ، وتحرم الحديث عنه ، أو القرب منه ، أو لمسه ولو من بعيد ، على من يريد التطهر والارتفاع . ومن ثم وجد الشباب - الذى تشغل المشكلة الجنسية جانباً كبيراً من شعوره وتفكيره - وجد في تعاليم فرويد متنفساً له ومنطلقاً ، وسنداً قوياً يسنده وهو يقاوم ضغط الدين والأخلاق والتقاليد . سنداً يمحو عنه وصمته «الخطيئة» التى يواجهها المجتمع وتواجهه بها نفسه من الداخل . وتعطيه بدلاً منها شعاراً آخر جذاباً مغرياً : شعار الجرأة والتحرر والانطلاق والكفاح .

كما وجدت الجماهير ، من الشباب وغير الشباب ، فرصة جديدة سانحة لهدم جانب من بقايا البناء الذى كان شامخاً من قبل فأصبح اليوم يهتر ويتأرجح ، بناء «الكنيسة» المسيطرة المتحكمة . . فرصة للانعتاق من الغول الذى كان يتهدهدهم من قبل ، والذى يحسون في دخيلة أنفسهم بالفرحة الشامة كلما أثنخته الجراح . ولتذهب في سبيل الشيطان دعوى الإنسانية ، إن كان سيصحبها التضييق . ولتكن «الحيوانية» هى الشعار البشرى إن كان سيصحبها التفلت من القيود .

وسمى هذا بأنه الفهم الواقعي «للطبيعة البشرية» .

* * *

ولم يقتصر تغير فرويد على ميدان البحوث النفسية والعيادات
السيكلوجية، كما لم يقتصر تأثير دارون من قبل على أبحاث علم الحياة. ذلك
أن كلا منهما في الواقع قد جاوز دائرة « العلم والبحث » وأعطى تصويرًا معيّنًا
« للإنسان » قائمًا على أساس حيوانية الإنسان وماديته .

وكما انعسكت الأفكار الداروينية ونظرية التطور على الدين والأخلاق
والتقاليد ، فكذلك انعكست أفكار فرويد الجنسية على الدوائر ذاتها ، بل
كانت أشد تأثيرًا فيها وتغلغلًا في شعابها لأنها تمس الأخلاق والتقاليد مسًا
مباشرًا ، بل تسعى إلى تقليعها من الجذور .

لقد ظهرت على إثر فرويد مذاهب في الفن والأدب والتفكير مذاهب
تسعى كلها إلى عرض الجنس على أنه محور الحياة البشرية وعنصرها الأوحده ،
كما تسعى إلى تصوير قيود الأخلاق والتقاليد على أنها سخيف لا ينبغي للبشرية
أن تزاوله ، أو رياء لا يؤمن به أحد في دخيلة نفسه . ومن ثم ينبغي العدول
عنه إلى صراحة الواقع . إلى صراحة الحيوان العريان .

وظهرت قصص ومسرحيات وأشعار وصور وموسيقى وصحافة مجنّدة كلها
للجنس . مجنّدة لإبرازه ، وتمجيسه ، وتسليط الأنوار عليه ، وكشف الأستار
عنه ، وإزالة الخجل منه ، والحث على ممارسته علانية وفي وضوح النور .

وممارسة الجنس في غير حدوده « الشرعية » التي رسمتها الأديان ليس أمرًا
جديدًا على البشرية ، فقد وجد منذ وجدت الجماعة الإنسانية ولكن الذي جد
على إثر فرويد ، هو الدعوة إلى العلنية التي لا تخجل والحيوانية التي لا تستتر،
وإضفاء صفة « الشرعية » على ما لم يكن شرعيًا من قبل ، وكان يأتيه من يأتيه
على حذر وفي خفية عن العيون .

وتخصص أدباء من أمثال « د . هـ . لورنس » في الكتابة عن الجنس ،

وتلذذ القارئ به ، وشغل انتباهه بدقائقه ، واستغلال البراعة الفنية الفائقة في الدعوة لقضية الجسد ، وتصوير الحيوان الداخِل في كيان الإنسان على أنه هو الإنسان الحق . هو وحده وكل ما عداه أباطيل .

هذا في الأدب «الجاد» . . أما الأدب «الجنسى» البحت ، الأدب الذى كان كل همه وصف لحظة الفراش بالتفصيل والإعادة والتفصيل والإعادة . . فقد انتشر في أرجاء العالم كله بشكل عنيف لا مثيل له من قبل في الكثرة والإنتشار ، وساعد على ذلك نمو الطباعة وإمكانياتها المتزايدة .

وتخصت صحافة كاملة في الدعوة لشئون الجنس ، وتفصيها ، وبلورتها ، ومعالجتها من شتى الجوانب . من جانب الدين وتعرضه السخيف مع «الواقع» البشرى مرة . ومن جانب التقاليد السخيفة التى تقف في طريق «النمو الحر للطاقة الجنسية» ! مرة ، ومن جانب الأخلاق وتدخلها فيما لا ينبغى التدخل فيه من حرية الإحساس والعمل مرة ، ومن جانب قصص الجنس المثيرة مرة . ومن جانب الصور العارية مرة ومن جانب النكت الجنسية مرة . ومن جانب عرض المشاكل العاطفية والمشاكل الاجتماعية مرة ، ومن كل جانب يمكن أن يتدسس إليه شخص يريد أن يمزق «الملابس» الحسية والمعنوية التى يدارى بها الإنسان سوءاته ، ويعرضه في وضح النهار عريان .

وتخصت موسيقى كاملة في إثارة الجنس والتعبير عنه بشتى صنوف التعبير، وحدها أو بمصاحبة الغناء والرقص . تعبر عنه صخبًا نازيًا كألحان الجاز ، أو اندفاعًا فارها كبعض ألحان الرقص ، أو تموجات حسية ظاهرة كبعضها الآخر .

وهذا كله في المسارح «الراقية» والأندية «النظيفة» . أما مسارح الجنس

البحث وأندية الحيوانية البحتة فألوان من الغناء والرقص والموسيقى لا تحتاج إلى تصوير.

وتخصصت فنون «لدراسة» الجسد . . لا على الطريقة اليونانية القديمة التي كانت مع تحليلها ووثقتها تبحث عن الجمال « في الجسم » وإنما على طريقة «فرويد» . . الطريقة التي تعرض الجنس في الجسد وتكشفه للعيون عريان ، لأنه الحقيقة في الإنسان .

* * *

وفوق ذلك كله جاءت السينما . . فكانت كالضربة القاصمة .

لقد كانت السينما منذ مولدها فن « الجماهير » . الجماهير التي لا تقر الأديب ولا تجد نقود المسرح ولا تتاح لها فرصة الرقص بمصاحبة الغناء والموسيقى ولا تجد فرصة التردد على المراسم ومشاهدة « اللوحات » . . هذه الجماهير تفهم السينما وتذهب إليها في شغف مجنون .

وقد جاء المولد العلمي للسينما والفيلم في عصر « فرويد » ، فولدت ملوثة بالجنس . ومع ذلك فقد تدرجت - ككل شيء - من أفلام تحمل فكرة وقليلاً من الجنس ، إلى أفلام معظمها يحمل الجنس وقليلاً من الفكرة ، إلى أفلام لا تحمل إلا الجنس - كأفلام الاستعراض .

وكانت السينما - بإمكانياتها الفنية الفذة - فتنة للجماهير . فهي في الواقع مجموعة من الفنون متناسقة متساوقة . فن القصة وفن المسرح وفن التصوير وفن الموسيقى وفن الغناء كلها مجتمعة ، بجانب الإمكانيات العلمية التي تجعل الشريط الناطق المصور - المجسم حديثاً - أشبه شيء في مظهره بواقع الحياة .

ومن ثم كان أثر السينما في حل الأخلاق والتقاليد أعنف من كل ما سبقها من صحافة وإذاعة وفنون . . لأنها تحمل « الواقع » الجنسي المجسم ، وتعرضه بصورة خلاصة سريعة العدوى شديدة التأثير .

فإذا أضيفت السينما الجنسية إلى المسرح الجنسي ، إلى القصة الجنسية ، إلى الموسيقى الجنسية ، إلى الصحافة العارية ، إلى « الأفكار » العارية ، إلى الدعوات الجاهرة لتحطيم الدين والأخلاق والتقاليد . . فقد نشأت أجيالا لا تؤمن في نفسها بحقيقة غير حقيقة الجنس ، ولا ترى غضاضة في تعرية الحيوان الكامن في الإنسان ، تعرية حسية ومعنوية ، تعرية في المشاعر والسلوك ، تعرية في البيت وفي الشارع ، تعرية في اللفظ وفي الحركة ، في المشية والجلسة والنظرة . . حيوان عريان .

* * *

وقبيل ذلك ، وفي أثنائه ، وفيما بعده ، كانت الثورة الصناعية في أوروبا تعمل عملها في هدم الأخلاق والتقاليد .

تحدّد الثورة الصناعية في إنجلترا - تاريخيا - بالفترة ما بين ١٧٦٠ و ١٨٣٠ ولكن هذا مجرد تحديد « اصطلاحى » يدل على التحول من الآلة اليدوية إلى الآلة البخارية . أما الحركة الاجتماعية والحركة النفسية اللتان أحدثتهما الثورة الصناعية ، فلم تقف بطبيعة الحال عند سنة ١٨٣٠ ، بل الأحرى أن تكونا عندئذ قد بدأتا في الاشتداد !

وفي بقية أوروبا بدأت الثورة الصناعية متأخرة عن ذلك العهد ، وظلت تنشر أمواجها المتلاحقة في بلد إثر آخر ، متشابهة في المظهر ، حتى خيل للناس أنها ظاهرة عامة ، متساوقة متوافقة ، وصدقوا لذلك ما يقوله التفسير المادى للتاريخ !

كانت أوروبا في العصور الوسطى تعيش في ظل الإقطاع . وظل هذا الإقطاع مخيمًا مع الظلام الذي اكتنف أوروبا كلها في العصور المظلمة ، حتى بدأت تفتيق في عصر النهضة وحركة الإحياء .

وبدأ الإقطاع يتحطم حين قامت ثورة الفلاحين الأرقاء ، وأخذوا يهربون من الأرض التي كانوا مقيدين إليها ، لا يملكون مزارعتها ، ولا يملكون حريتهم فيها ، ولا يملكون سمة واحدة من سمات الأدمية الراقية أو غير الراقية . فقد كان العبيد والحيوانات سواء . أو ربما أكرم الحيوان - لكى يعيش ويعمل - دون أن يكرم العبيد !

ولكن وجه الحياة في أوروبا لم يتغير تغيرًا حاسمًا إلا حين تحولت إلى الصناعة .

فمن قبل اضطرت الملاك - إزاء ثورة الفلاحين - أن يطلقوهم من عبوديتهم ، ولكنهم ظلوا مع ذلك يعملون في الأرض وظلت حياتهم دون تغير كبير . لأنهم - في الواقع - لم يغيروا من أنفسهم إلا القليل . تغير « مظهر » الرق ، وظلت حقيقته في داخل النفوس .

أما حين نشأت الصناعة فقد تغير الوضع من أساسه . . على الأقل في ظاهر الأمور^(١) !

نشأت الصناعة في المدينة ، واحتاجت إلى العمال . . ولم يكن في المدينة أصلًا ما يغذى حاجة الصناعة الناشئة ، فكان لابد أن « تستورد » حاجتها من الريف .

(١) تقول الشيوعية إن العبودية في الواقع قد انتقلت من عبودية للأرض إلى عبودية لرأس المال ولكنها لم تتحرر .

وجاء الريفي المنتزع من الأرض ، المنتزع في الوقت ذاته من ربة الإقطاع .
جاء يضع رجله في المدينة أمناً من سوط « السيد » ، أمناً من أغلال التبعية ،
وعناء الكد بلا ثمرة ، والجهد بلا مال . وأحس - لفترة من الوقت على الأقل -
بطعم الحرية ولذة الانعتاق^(١) !

وقام في حسه فارق حاسم بين عالم الريف وعالم المدينة .

عالم الريف هو الذل والتبعية والعبودية . وعالم المدينة هو التحرر من
الأغلال .

ولم يكن في نفوس العمال ضابط « منطقي » يقول لهم : إن في حياة الريف
« معاني » جميلة يحسن أن يأخذوها معهم ، أو « عقائد » سامية تصلح لهم في
المدينة ، أو « روابط بشرية » لا يحسن أن يتركوها وهم يتركون القرية ، أو
يلقوها وراء ظهورهم وهم يلقون الرق والعبودية والانعدام الدليل .

كلا ! لم يكن في نفوسهم هذا الضابط « المنطقي » يفرز لهم ما يصلح وما
لا يصلح . وإنما كانت حركة وجدانية منفعة تطلب الانعتاق . كل همها
أن تلقى كل شيء وراءها وتحطم كل شيء . . لتحس بمولد حياة
جديدة .

وهب أنها احتكمت إلى المنطق ، وأمسكت بالميزان . . فماذا كان قد بقي
لديها من الخير الحق تحافظ عليه وتنافح دونه ، وهي هناك أذل من السائمة
وأدناً من الحيوان ؟

(١) لم يدم هذا الإحساس طويلاً ، فسرعان ما وجد العمال أنهم وقعوا فريسة لغول أبشع من
غول الأرض . ومع ذلك فإن نزعة الصراع والرغبة في التحرر كانت تسرى في دمائهم ،
وهذه النزعة هي التي أثرت في تغيير الأوضاع .

كلا ! فلتذهب القرية إلى الجحيم . . وليحیی العمال في المدينة منعتین من
القيود . . كل القيود !

هذه واحدة . . أو هذه هي الأساس .

وجاء العمال فرادى . . من قرى متفرقة . وحتى لو كانوا من قرية واحدة
فهم أشتات لا يربطهم عمل واحد ولا سكن واحد ولا شاغل مشترك . .
حتى الآن .

في الريف كانوا متعارفين ، وكانوا ذوی قری حقیقیة ، هي قرابة الدم أو
قرابة النسب . . أو في الأقل قرابة المعرفة والجوار .

ولكنهم في المدينة أشتات . لا أقرباء ولا متعارفون .

وأحس كل فرد منهم أن الروابط التي كانت تربطه من قبل قد انقطعت
فجأة . والتقاليد التي كان يخضع لها في القرية ويحافظ عليها - لا عقيدة في
الغالب ، وإنما خجلا من الآخرين - هذه التقاليد لم يعد لها مبرر . فمنذا الذي
هنا يعرفه ؟ أو يهتم بأمره ؟ أو يحاسبه على مخالفة التقاليد ؟

فلينفلت . . فليس ها هنا حساب !

وهذه واحدة . .

وجاء العمال وحدهم - في أول الأمر - بلا أسرة ولا أزواج .

لم تكن الأحوال المعيشية في المدينة مأمونة حتى هذه اللحظة بحيث يأخذ
العامل أسرته ويتزوج بها إلى المدينة . فهي تجربة جديدة محفوفة بالمخاطر ، قد
تفلح وقد تخفق . فالأجدد أن يسافر العامل وحده ، ولتبعه أسرته حين تستقر
الأموال .

وحده- في الغالب- في سن الشباب . فما كان يطيق العمل في المصانع أول الأمر إلا الأشداء ، وما كان أصحاب المصانع يقبلون إلا الأشداء .

وحده - في سن الشباب - بلا حواجز . فالخلق والدين و« الضمير » والتقاليد تركها في القرية يوم انفلت منها إلى المدينة . وفي المدينة لم يجد ذلك الرادع الموجود في الريف : رادع الحياء من الآخرين .

وحده- في سن الشباب- بلا حواجز- وحوله المغريات .

ففى المدينة - منذ القدم - يوجد البغاء . مستترًا حينًا ، ومنكشفًا حينًا . ولكنه دائمًا هناك .

وانطلق الشباب - في فترة تعطله الجنسي بعيدًا عن الأسرة - ينغمسون في مقاذر الشهوات .

وأحس العمال في أول الأمر أنها ضرورة . . ثم أصبحت عادة .

وحين اطمأنوا إلى حياتهم بعد ذلك ، وأرسلوا إلى أسرهم لتلحق بهم في المدينة ، أو أنشأوا لهم أسرًا جديدة في الوطن الجديد ، لم يقض ذلك على الضرورة التي كانت من قبل ، بل ظلت قائمة للأجيال الجديدة التي رأت فيها طريقة سهلة للتخلص من وطأة الجنس بغير تبعات .

وأصبح البغاء ، بصوره المختلفة ، من أول «الصداقة» الفردية إلى بيع الجسد لكل راغب . . أصبح هو التقاليد الجديدة في المدينة . التقاليد التي تبذل لها الرعاية ويحميها القانون .

وسمى هذا بأنه التطور الذى يتمشى مع الواقع ولا يعيش في الخيال .

ولم يقف تأثير الثورة الصناعية في تفكيك الروابط وحل الأخلاق عند هذا الحد . .

فقد بدأ العمال - الذين ابتهجوا من قبل بمقدمهم إلى المدينة - يشورون على أصحاب المصانع الذين يستغلونهم أبشع استغلال ، فيشغلونهم في العمل المرهق عشر ساعات أو اثنتى عشرة ساعة أو أربع عشرة ساعة أحيانا ، بأجور ضئيلة لا تكفى للحياة الكريمة ، ولا تفى بما على العامل من تبعات .

عند ذلك لجأ أصحاب المصانع إلى مكايده العمال بتشغيل النساء . نفس ساعات العمل بأجور أقل .

وأحدث تشغيل النساء حدثين عظيمين في الحياة الأوروبية .

فأولا : فك رباط الأسرة الذى كانت من قبل تمسكه المرأة ، الزوجة والأم ، وتضفى عليها من وجودها وأنوثتها وحيويتها وعاطفتها ما يجمع خيوطه ويعطيه صفة الكيان الحى . فالمرأة العاملة - وفي تلك الظروف البشعة التى تأخذ كل الوقت الحى وكل الجهد الحى - لم تكن تستطيع أن تمنح بيتها شيئاً من الرعاية ، ولو أرادت ذلك وحنّت إليه .

وثانياً : أفسد أخلاق المرأة لعوامل كثيرة .

فالنظام الأوروبى لم يكن من قبل يمنح المرأة اعتباراً أو يعطيها حقوقاً «مدنية» أو اقتصادية .

لم يكن لها أن تملك . ولم يكن لها أن تتعلم . ولم يكن لها أن تبدى رأياً ، أو تشارك فى أمر . كانت هملاً تابعاً للرجل . . تبعية منشؤها الحاجة إلى المأكل ، والملبس ، والمسكن ، والجنس . تبعية لا مشاركة . تبعية لا تحفل بالمشاعر الإنسانية ولا تقيم اعتباراً لكيان الأدميين . وفى ظل هذه التبعية كانت تلتزم «بالفضائل» التى يفرضها المجتمع - أى الرجل - لا عن عقيدة حية واعية فى الغالب وإنما عن تقليد .

فلما اشتغلت المرأة وصارت تكسب ، أحست أن الحاجز قد إنهار .

أى شىء للرجل عندها اليوم ؟

وبأى شىء يستعبدها ؟

بالحاجة إلى المال ؟ إنها تكسب عيشها بنفسها ، وتتخلص من التبعية .

الحاجة إلى الجنس ؟ نعم . . ولكنها ستأخذها بنفسها . ستمنح نفسها باختيارها لمن تريد .

وكذلك تصاحب فى حسها التحرر الاقتصادى و « التحرر » الجنسى ، أى الانفلات من قيود الدين والأخلاق والتقاليد ، وأحست - فى نشوتها بالتحرر الأول - أن التحلل الجنسى نصر كذلك جديد .

وسمى هذا بأنه « التطور » الذى حرر المرأة من الأغلال .

* * *

ومضت الثورة الصناعية تحطم ما صادفها فى الطريق . .

ولم تكن الظروف التى وصفناها فيها سبق هى وحدها التى أثرت فى بنية المجتمع وأحدثت ذلك التغيير .

فقد أحدثت مظالم العمال تطورات سياسية كثيرة . وكذلك نشوء طبقة متوسطة من موظفى المصانع والحكومة تعيش فى المدينة وتشعر بالمظالم وتحفز للسلطان .

هذه الطائفة وتلك - بحكم وضعها وظروفها - تنفر من الأغلال وتطلب التحطيم .

تريد أن تحطم السيطرة الواقعة عليها ، سواء من الدولة أو من أصحاب المصانع والمولين .

تريد أن تظفر بحقوق جديدة . بتحرر بعد تحرر . بكيان جديد .

لقد كانت تحس أن عليها التبعات جميعًا - تبعات العمل - دون أن يكون لها مقابل من الحقوق . فليس منها واحد يتولى مقاعد الحكم التي كانت مقصورة على طبقة النبلاء ومن ورثهم من الرأسماليين . وليس لها صوت في البرلمان الذي يشرع ، بل ليس لها حق الاقتراع في كثير من الأحيان . كما لم يكن لها حق تكوين النقابات والاتحادات التي تعبر بها عن مصالحها ، وتتقوى بها في وجه من فوقها من الطبقات . ولم تكن تكفل لها - في جميع الحالات - حرية الاجتماع وحرية الخطابة وحرية التعبير عن رأيها وحرية الاضراب . ولا كانت تكفل لها حين تتبعها السلطة التنفيذية ضمانات الاتهام وضمانات التحقيق وضمانات المحاكمة وضمانات التنفيذ . .

لذلك كان صراعهم عنيفًا لاستخلاص هذه الحقوق .

وفي وسط هذا الصراع الدموي - أو الشبيه بالدموي - لا يوجد الضابط المنطقي الذي يقول : أنا أتحمر من الظلم ، أتحمر من السيطرة الطاغية للسيد أو الدولة . ولكنني سأبقى على القيود اللازمة للبشرية ، التي يصبح الإنسان بدونها كالحيوآن . سأبقى على العقيدة . سأبقى على الأخلاق . سأبقى على التقاليد . لأنها ليست جزءًا من الصراع مع الدولة ولا أصحاب المصانع ورءوس الأموال . أنا نائر على الظلم ولست نائرًا على الإنسانية .

كلا ! لا يوجد هذا الضابط المنطقي في حلبة الصراع الذي كان قائمًا على

لقمة العيش وعلى قيم أرضية بحتة لا صلة لها بالمثل والأخلاق .

وأهم من ذلك - من وجهة النظر التي نحن بصدددها في هذا الفصل - أن محور هذا الصراع الذى يتطلع إلى التحرر ، ومحور الفلسفة الرأسمالية كلها في ذلك العصر كان « تحرر الفرد » من السيطرة ، وحقه في أن يصنع ما يشاء بغير تحريج .

كان الرأسماليون ينادون بحقوقهم في استغلال رءوس أموالهم فيما يرون -هم- أنه الصالح وأنه الصواب . وكلمتهم المشهورة "Laissez Faire" دعه يعمل ، أو دعه يصنع (ما يشاء) تعبر عن اتجاههم كله . وكان الشعب ينادى بحقه في التصرف كما يشاء ، وحقه في أن يرى من الآراء ما يشاء ويسلك الطريق التي يراها للتعبير عن هذا الرأى دون أن يكون لأحد حق التحريج عليه أو منعه مما يريد .

ومن ثم نادى « المفكرون » - فيما نادوا به - بحرية الإلحاد ، وحرية عدم التخلق بخلق ، وحرية تحطيم التقاليد .

ومضى التحرر السياسى في طريقه يصحبه التحرر الكامل من القيود ، ينفخ فيه في الوقت ذاته دعاء « دارون » و « فرويد » ، والتفسير المادى للتاريخ . وسمى هذا بأنه المولد الجديد للحضارة الأوروبية .

وكانت الأمور كذلك حين قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

كانت الحرب هزة عنيفة أصابت العالم كله بما يشبه الدوار ، وأحدثت فيه تقلبات صاعدة وهابطة ، غيرت كثيرا من القيم وكثيرا من المفاهيم .

ومع ذلك فإن الذى يستعرض هذه الفترة ، وما قبلها ، وما بعدها ، يجد

أن الحرب لم تصنع أكثر من تجميع القوى المتطورة وتضخيمها بحيث تبدو لمن ينظر إليها فجأة كأنها قوى جديدة لم تكن في الميدان .

كان من أفظع نتائج الحرب وأكبرها خطرًا قتل ما يقدر على الأقل بعشرة ملايين شاب من أوروبا وأمريكا في ميدان القتال ، غير من قتلهم الغارات الجوية في المدن من الرجال والنساء والأطفال .

ونج من ذلك مجموعة من النتائج الخطيرة . .

فإن ملايين من الأسر قد وجدت نفسها في نهاية الحرب بلا عائل . . إما لأن عائلها قد قتل في الحرب ، أو شوه بدرجة تعجزه عن العمل ، أو فقد عقله وأعصابه بفعل الحياة الدائمة في الخنادق والغازات السامة ، والغازات المدمرة ، والتوقع الدائم للهلاك .

هذا من ناحية . .

ومن ناحية أخرى فإن الذين خرجوا من الشباب قادرين على العمل لم يكونوا كلهم على استعداد لأن يتزوجوا ويكفلوا أسرة . فإن حياة الحرمان الشنيعة التي عاشوها أربع سنوات كاملة في أثناء الحرب ، لم تترك في نفوسهم فسحة لتحمل التبعات والكدح في سبيل الآخرين . لقد خرجوا منهومين يريدون الاستمتاع بالحياة . يريدون النساء والخمر والمباحج . يريدون أن يطفثوا السعار الملهوف . فلا بأس بالمرأة صديقة تستجيب للرجبة اللاهفة ، أو جسداً يشتري بالنقود . ولكن لا مرحباً بها زوجة وأم ولد تتمثل فيها القيود والمتاعب والتبعات .

ومن ناحية ثانية فإن الدمار الفظيع الذي أحدثته الحرب كان يستلزم طاقة

إنتاجية هائلة للتعويض ، ولم يكن من تبقى من الرجال كافيًا لحركة التعمير الشاملة المطلوبة في كل مكان .

والتقى الأمران على شيء واحد : يجب على المرأة أن تعمل في السوق وفي المصنع والمنجم ، في مكان يمكن أن تعمل . . وإلا هلكت جوعًا هي ومن تحول .

واضطرت المرأة - كارهة أو راضية - أن تترك حياة المنزل المستقرة نوعًا ، وتنزل إلى المعترك الصاخب الذي لا يرحم ولا يجير .

واضطرت كذلك - كارهة أو راضية - أن تتنازل عن أخلاقها إذا أرادت أن تعيش .

لقد كانت - في غير الأعمال النسوية بطبيعتها كالتدريس والتمريض والتوليد . . - تلتقى برجال قد صبغتهم الحرب بصبغتها . . صبغة الرغبة في المتاع السهل القريب . فإن لم تبذل نفسها وأرادت أن تحتفظ بأخلاقها ، فأمامها أبواب موصدة وكل شيء عسير . وإن رضيت واستجابت فأبواب مفتوحة وكل شيء يسير . .

على أنه لم يكن من الضروري أن يكون الأمر كذلك في كل حالة . . لم يكن من الضروري أن تُكره المرأة على بذل أخلاقها لتحصل على عمل . وإنما هي ذاتها كانت مدفوعة بمعامل آخر .

لم تكن جوعة الطعام وحدها هي التي تواجهها ولا جوعة الزينة وجوعة اللباس .

بل كانت تواجه كذلك جوعة الجنس .

إن الملايين العشرة الذين قتلوا من الشباب قد أحدثوا اختلالًا شنيعًا في

نسبة النساء إلى الرجال ، ففي مقابلهم وجدت ملايين من الفتيات لا يستطعن أن يجدن زوجًا ولو تزوج كل من بقى حيًا من الرجال ، لأنه لا مقابل لمن من حيث العدد ، ولانظام يسمح لمن يريد من الرجال أن يتزوج ، زواجًا شرعيًا ، بأكثر من واحدة ، وإن كان هذا النظام ذاته - وبصفة رسمية - يسمح بمعاشرة أكثر من واحدة معاشرة غير «شرعية» ما دامت غير قاصر ولم يقع عليها إكراه !

فكيف تمجد كل فتاة حاجتها الجنسية الطبيعية الشرعية النظيفة ؟

وما لم تكن هذه الفتاة قديسة أو ملاكا فأى شيء تصنع ؟ إلا أن تأخذ نصيبها من الجنس في علاقة غير شرعية - وإن كانت قانونية - أو خلسة متتهبة في الظلام ؟ فإذا وقفت التقاليد في طريقها كانت التقاليد في نظرها هي التي ينبغي أن تحطم ، وهي التي ينبغي أن تزول .

* * *

وانتهزت المصانع والشركات فرصة الحاجة الملحة التي تعانيها المرأة فشغلت النساء بأجور أقل من أجور الرجال ، وإن كن يقمن بنفس العمل ونفس القدر من الساعات .

وكانت خسة لا يبررها منطق ولا عدالة ولا ضمير . ومع ذلك فقد وجدت واستمرت كأنها الشيء الطبيعي الذي ينبغي أن يكون .
وأصبحت للمرأة قضية . . قضية المساواة في الأجور (١) .

(١) هذه القضية بكل مطالبها وكل صراعاتها قديمة بدأت مع الثورة الصناعية . . ولكنها زادت حدة في سنوات الحرب وما بعدها .

كان هذا الوضع بالنسبة للمرأة قديماً ، منذ الثورة الصناعية . ولكنه كان في نطاق أضيق ، أشبه بأن يكون حالات فردية . أما اليوم وقد اشتغلت النساء بالجملة فقد أصبحت قضية عامة ومعركة حامية الأوار .

لقد استخدمت المرأة في كفاحها كل سلاح المعركة . الاحتجاج والإضراب والتظاهر والتهديد والوعيد .

ومع ذلك لم تظهر بنتيجة ، أو ظفرت بنتائج جزئية لا تحقق الأهداف . وبدا للمرأة أنها طالما بقيت بعيدة عن مصدر التشريع فلا فائدة ترجى من وراء الصياح .

لا بد أن يكون لها صوت مسموع في البرلمان . . إما أن تدخل بنفسها أو يكون لها على الأقل حق التصويت .

وقامت تطالب بهذا وذاك .

وعندئذ تغير وضع القضية ، ولم يعد مجرد المساواة في الأجور .

كان الصراع من قبل على الدراهم . . واليوم على الأساس .

لقد وقف الرجل في الطريق يقول هذا حقى وليس حق المرأة . أنا السلطة التشريعية . أنا الذى أشرع وأحكم . أنا الذى أصوغ القوانين للمجتمع وأنا الذى أنظم الحياة .

وقامت المرأة - التى لم تكن تطالب غير المساواة في الأجور في مبدأ الأمر -

قامت تقول نحن سيان في الخليقة . نحن سيان في الكيان . نحن سيان في الحقوق وسيان في الواجبات . نحن والرجل سواء . لا يفضلنا بشيء ولا مزية له علينا ولا اعتبار .

وكان صراع مستطيل مرير . لم يقف الآن عند المساواة في الأجر أو المساواة في التصويت أو المساواة في دخول البرلمان أو المساواة في الوظائف . . الخ . وإنما صار المطلب هو المساواة الكاملة المطلقة في جميع الشئون بغير استثناء . ووقف الرجل بكل عنجهيته الفارغة والملائة . . وتحصن - الآن - بالدين والأخلاق والتقاليد .

قال : إن الدين وضع الرجل في مرتبة أعلى من المرأة وجعلها تابعة له . وقال : إن الأخلاق والتقاليد تقضى بأن تكون المرأة للبيت والزواج والأسرة ، وليست للعمل والمزاومة على الأرزاق .

وراحت المرأة تلعن الأخلاق والتقاليد وتتحلل من قضية الدين . ومضت في إصرار ودأب تطرق كل ميدان وتلح في طرقة إلى أن يستجيب . طالبت بالتعليم على نظام الأولاد ، ثم بالتعليم المشترك مع الأولاد . وطالبت بدخول الجامعات ، ثم دخول كل كلية كانت محظورة على الفتيات . وطالبت بالوظائف من كل نوع ، وصار طلبها منطقيا بعد أن تلقت نفس التعليم الذي يتلقاه الفتيان .

ثم طالبت بحرية التحرر من الأخلاق كما يصنع الرجال . وكان طلبها منطقيا ما دام المجتمع يسمح للرجال بالانحلال . وإذا كانت - فيما لا تملك من الأمور - تنتظر موافقة الرجل ، فقد كانت فيما تملك من نفسها لا تنتظر موافقة أحد من الرجال .

ومن ثم خرجت تنهتك في الطريق ، وتطلب بنفسها متعة الجنس ، وتعطى نفسها لمن تشاء وتقضى معه مطالب فرويد . . مطالب الحيوان .

ونار الرجال في بداية الأمر ثورة عنيفة . . . ثار لكرامته الجريئة وامتيازه الموروث .

ولكنه لم يلبث أن استجاب .

لقد حسب حسبة فوجدها صفقة رابحة . .

الزوجة التي تعمل تخفف عن كاهله نفقات الحياة . ودخلان أفضل من دخل . ومهما احتجرت المرأة لنفسها وزيتها فستشاركه في جزء من نفقات المنزل . وذلك كسب يزيع عن قلبه شيئاً من الأعباء .

ومن جهة أخرى فإن خروج المرأة إلى الطريق سهلة الوجود، وسهلة التناول، مسألة شيقة . فحيثما تُوجد يقع عليها نظره، يستمتع بما يراه من حسن وما يراه من مغريات . وحيثما أرادها فهي قريبة بحكم زمالة العمل ، أو زمالة الدراسة ، أو زمالة الطريق . . . وهي أقرب بزمالة التحلل من الأخلاق والتحلل من القيود . ومن ثم فهي هكذا جميلة . . والحياة مشرقة . . والمتاع ممكن . . وأقصى المتاع ليس بالمستحيل .

ووافق الرجل على الصفقة الرابحة . وكف عن الثورة للكرامة الجريئة والامتياز الموروث . بل أصبح هو الداعية للتحرر ، والمطالب بإعطاء المرأة ما لها من الحقوق .

وسمى هذا بأنه عصر تحرر المرأة ورفعها إلى مستوى الإنسانية .

* * *

ولم يكن ذلك هو المجال الوحيد الذي أثرت فيه الحرب ، وقلبت القيم والمفاهيم ، أو - في الواقع - ضخمت ما كان موجوداً من قبل ، وأعطته مجالاً للانطلاق .

فقد كانت النزعة المادية عريقة في أوروبا ، تغشيتها قشرة رقيقة من المسيحية، تكمن في الوجدان وتلون بعض التصورات ، وإن كانت لا تتحكم كثيراً في واقع الحياة .

وظلت المادية تزداد تأصلا ، والقشرة المسيحية تزداد رقة مع النظريات المتوالية التي نشأت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وخاصة نظريات «دارون» و « فرويد » والتفسير المادى للتاريخ . ثم كانت فترة الحرب وما بعدها فترة تطاحن مجنون على الغلبة في الأرض . تطاحن على زيادة الإنتاج المادى ، وتطاحن على استغلال القوى البشرية ، وتطاحن على إزالة الدول بعضها لبعض .

صراع رهيب في عالم المادة ، لا يتصل بمبدأ ولا يستمع لحظة لنداء رفيع . .
وفي الوقت ذاته زادت الفتنة بالعلم . ففى أثناء الحرب جندت الكفايات العلمية كلها لاستنباط مهلكات جديدة . وجندت بعد ذلك لاستنباط وسائل التعمير من الخراب الشامل ، ووسائل الغلبة في ميدان الإنتاج .
وحدث تقدم باهر في ميدان العلم وعالم المخترعات .
تقدم أفقد العقول توازنها فوقفت مذهولة إزاء المارد الجديد .

ومن قبل ، من أيام «كوبرنيكوس» و « وجاليليو » ثم «دارون» وغيره من بعده ، وقف العلماء موقف العداء السافر من الكنيسة ، ووقعت الجفوة العنيفة بين العلم والدين .

وانتصر العلم على الكنيسة للظروف التي شرحناها من قبل . . ثم ظلت الفرقة تتسع بين العلم والدين كلما فتح ميدان جديد أمام العلم ، بينما الدين قابح هناك لا يملك الخروج من قاعة الكنيسة إلى زحمة الطريق .

وحدثت الفتنة حين خيل للناس - وللعلماء أنفسهم - أنهم سيطروا على قواين الطبيعة ، وأنهم على بعد خطوات من خلق الحياة .

هنالك نبذت أوروبا إلهها - كما قال « سومرست موم » - وأمنت بإله جديد اسمه العلم . وتحللت نهائياً من فكرة الله والتدين ، ومن كل القيم والمفاهيم التي صاغها الدين من قبل . وخيل لها أن في مقدورها - بل من واجبها - أن تصوغ اليوم قيمها كلها ومفاهيمها كلها ، ولا تترك لوصاية عليها من الله أو سواه . فقد شبت اليوم عن الطوق ولم تعد في حاجة إلى وصاياات !

اليوم كما قال « جوليان هكسلي » : يعبد الإنسان نفسه ، فالإنسان هو الله .

وسمى هذا بأنه عهد انتصار الإنسان على الطبيعة والتخلص من الخرافة .

* * *

تلك هي العوامل التي أثرت في أوروبا وانتهت بانهيار الدين والأخلاق والتقاليد .

وعلى وهن الدين في أوروبا ، ومع أنه كان قشرة على السطح ، فقد احتاج إلى قرنين كاملين من الزمان ، قرنين كاملين وهذه المطارق العنيفة المتوالية تدق فوقه في عنف ، وتحطم فيه من كل جانب ، ما تكاد إحداها تبدأ حتى تكون أختها قد لحقتها ومضت تطرق معها . . والبناء القديم صامد رغم وهنه وتفسحه . . حتى تزلزل في نهاية الأمر وانهار .

وقد كنا - إلى هذه اللحظة - نستعرض تلك العوامل . نستعرضها في بيئتها التاريخية التي نبتت وفرخت فيها ، ولكننا لم نناقشها ولم نفحص ما فيها من خطأ أو صواب .

هذه الدعاوى التى انطلقت واحدة إثر واحدة تهاجم الدين والأخلاق
والتقاليد وتؤدى إلى انهيارها . .

هل كلها حقائق؟

أم أنها أباطيل؟

أم هى فى وقت واحد . . حقائق وأباطيل؟

حقائق وأباطيل

في الفصل السابق استعرضنا مجموعة التصورات الأوربية عن الكون والحياة والإنسان . . قبل « دارون » ، وبعد « دارون » ورأينا كيف ظلت مفاهيم الدين والأخلاق والتقاليد ، وما حولها من مشاعر وإشعاعات ، تهتز وتتأرجح . . وتتهاوى في نهاية المطاف .

وحين يقف الإنسان - كما وقفنا في الفصل السابق - يستعرض هذا الخط الطويل من التدهور المستمر والانحراف المتواصل ، يأخذه العجب أن تكون هذه التصورات المهترئة المتخبطة المخبولة تصورات بشر . وبشر يزعمون أنهم ناضجون ، وأنهم متعلمون ، وأنهم عالمون . بشر يزعمون أنهم هم الناس . وأنهم خرجوا من ظلام العصور الوسطى ، إلى نور المعرفة الحق الذي لا يضل فيه السالكون .

يأخذ الإنسان العجب أن تقوم على هذه التصورات حضارة .

حضارة تقول إنها هي الحضارة الحقة ، وأن كل ما عداها من حضارات التاريخ كان بالنسبة إليها مرحلة من مراحل الطفولة أو التأخر أو الظلام . حضارة تقول إنها القمة التي تتضاءل بجانبها جميع القمم ، وجميع القيم ، وجميع الأشياء .

يأخذ الإنسان العجب . . لولا ما يشاهده اليوم في هذه الحضارة من بوادر
التفسخ والانهيار .

لقد وصلت الموجة الطاغية إلى آخر مداها ، ثم أخذت في الانحسار .
أخذت تهبط ، ويهبط معها « الرجل الأبيض » الذى صنع فى الأرض من
المفاسد أضعاف ما قدم لها من وسائل التقدم الحقيقية ووسائل التعمير ،
والذى يوشك - قبل أن يغادر مكان السيادة الذى تقلده فى القرنين السابقين -
أن يحطم العالم كله ويهده من القرار .

نعم . لقد فقد الرجل الأبيض سيادته . . والذى يقول ذلك رجل أبيض
عريق البياض ، هو الفيلسوف الإنجليزى المعاصر «برتراند رسل» فى تصريح
حاسم أذاعه منذ سنوات (١). فقد سيادته لأنه استنفد أغراضه . . لم تعد لديه
فكرة صالحة يمنحها للبشرية . فما كان لديه من أفكار صالحة غلب عليه الشر
الكامن فى تصورات المنحرفة ، وما كان لديه من الحقائق غلبت عليها الأباطيل .

* * *

وقد استعرضنا فى الفصل السابق خطوات الزمن فى أوروبا ، وما فعلته فى
أفكار الناس ومشاعرهم وحياتهم العملية . . ونريد فى هذا الفصل أن نناقش
تلك التصورات التى انتشرت من بعد « دارون » ، وغيرت نظرة الإنسان
لنفسه ، ولركزه من الكون ، ومهمته فى الحياة ، وغيرت - من ثم - كل شئ فيه .
إنها مجموعة مختلفة من التصورات فى كل اتجاه . فى السياسة ، والاجتماع ،

(١) قال برتراند رسل : « لقد انتهى العصر الذى يسود فيه الرجل الأبيض ، وبقاء تلك
السيادة إلى الأبد ليس قانوناً من قوانين الطبيعة . وأعتقد أن الرجل الأبيض لن يلقى
أياماً رضية كتلك التى لقيها خلال أربعة قرون » .

والاقتصاد ، وعلم النفس ، والفلسفة ، والآداب والفنون . . ولكنها تكاد تنحصر في تصورات ثلاثة رئيسية :

١- حيوانية الإنسان وماديته .

٢- والتطور الدائم الذى يلغى فكرة الثبات .

٣- وحتمية التطور الذى لا يد فيه للإنسان ، ولا رأى ، ولا اختيار .

فمن هذه التصورات الرئيسية الثلاثة انبعثت التفرعات والتطبيقات حتى شملت كل نشاط البشرية .

* * *

حيوانية الإنسان كان دارون هو بطلها المباشر . ففي كتابه « أصل الإنسان » إجماع شديد بحيوانيته ، ونفى لكل التصورات الدينية والفلسفية السابقة التى وضعت هذا الكائن الإنسانى فى موضع الامتياز والتفرد ، ورتبت على ذلك - ترتيباً منطقياً - تفرد الإنسان بنظم اجتماعية خاصة ، ونظم أخلاقية ، ليست لأحد غيره من الكائنات المعروفة ، وهى مزية الإنسان على الحيوان .

وقد بينا فى الفصل السابق بما يغنيننا عن إعادة الحديث ، كيف أدى تصور الإنسان لنفسه على أنه حيوان ، إلى سلسلة متوالية من التحلل الفكرى ، والخلقى ، والاجتماعى ، لا تكاد تتوقف عند حد . . فإذا ثبت لنا اليوم - بالمنطق والعلم - أن هذا التصور خاطئ من أساسه ، فقد انهارت من أساسها كذلك كل المفاهيم التى استمدت منه وانبتت عليه ، والتى فتنت الغرب فى القرنين الماضيين ، وفتنتنا - بالعدوى - كذلك فى هذا القرن .

ولن نقوم نحن بمناقشة « الداروينية » فى أمر حيوانية الإنسان . إنها الذى

يناقشها عالم « داروينى » حديث هو « جوليان هكسلى » فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث » .

وآل هكسلى - ليطمئن القارئ - كلهم - والله الحمد - ملحدون . وأشدهم إلحادًا هو « جوليان » هذا الذى نقل هنا كلامه ، فقد كان هو الذى قال - فى الكتاب ذاته - إن الله « سبحانه » كان خرافة خلقها الإنسان لنفسه لتؤنسه حين أحس بالوحشة فى هذا الكون ، وأنه قد آن الأوان لنبذ هذه الخرافة ، ولأن يضع الإنسان نفسه مكان الله .

نعم . ليطمئن القارئ أن الذى يناقش « الداروينية » فى أمر الإنسان هو عالم « داروينى » ملحد ليس فى قلبه قطرة واحدة من الإيمان .

يقول « هكسلى » بعنوان « تفرد الإنسان » :

« لقد تأرجح رأى الإنسان كالخطار (البندول) فيما يتعلق بمركزه بالنسبة لبقية الحيوانات ، بين إعجابه الشديد أو القليل بنفسه ، تفصل بينه وبين الحيوانات حينما هوة سحيقة جدا ، وحينما آخر هوة صغيرة جدا ، ومن الممكن طبعًا تصغير الهوة أو تكبيرها ، إما من ناحية الحيوان أو ناحية الإنسان . . ويستطيع الإنسان - كما فعل « ديكارت » - أن يصور الحيوانات كالألات ، أو - كما يفعل معظم السذج من الناس - أن يضيف عليها الكثير من صفات الإنسان . . أو يستطيع الإنسان أن يعمل فى الطرف الإنسانى من الهوة ، وحيثئذ إما أن يجرد جنسه البشرى من صفاته ويدخله فى عداد الحيوانات ، أو يسمو به كثيرًا إلى حد يجعله أقل من الملائكة .

« . . وبظهور نظرية « دارون » بدأ الخطار يتأرجح عكسيا ، واعتبر الإنسان حيوانًا مرة أخرى . . وصل الخطار شيئًا فشيئًا إلى أقصى مدى تأرجحه ،

وظهر ما بدا أنه النتائج المنطقية لفروض « دارون » : فالإنسان حيوان كغيره (من الحيوانات) ولذلك فإن آراءه في معنى الحياة الإنسانية والمثل العليا لا تستحق تقديرًا أكثر من آراء الدودة الشريطية أو بكتريا الباشلس . والبقاء هو المقياس الوحيد للنجاح التطوري . ولذلك فكل الكائنات الحية الموجودة متساوية القيمة . وليست فكرة التقدم إلا فكرة إنسانية . ومن المسلّم به أن الإنسان في الوقت الحاضر سيد المخلوقات ولكن تحل محله القطة أو الفأر . .

« ولم تصغر الهوة هنا بين الإنسان والحيوان نتيجة المبالغة في إعطاء الحيوان صفات إنسانية ، وإنما نتيجة القليل من الصفات الإنسانية في الإنسان . ومع ذلك فقد ظهر منذ عهد قريب اتجاه جديد سببه في الغالب زيادة المعرفة واتساع نطاق التحليل العلمى .

« إن الخطار يتأرجح ثانية ، و تتسع الهوة بين الإنسان والحيوان مرة أخرى . وبعد نظرية « دارون » لم يعد الإنسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانًا ، ولكنه بدأ يرى نفسه حيوانًا غريبًا جدًّا ، وفي حالات كثيرة لا مثيل له . وتحليل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية لم يبلغ تمامه بعد ، وما هذا المقال إلا محاولة لعرض مركزه الحالى .

«وأولى خواص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحًا قدرته على التفكير التصويرى . . ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية في الإنسان نتائج كثيرة وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة . . ومن أهم نتائج تزايد التقاليد - أو إذا شئت من أهم مظاهره الحقيقية - ما يقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات . . وإن التقاليد والعدد لهما الخواص التي هيأت للإنسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية . وهذه السيادة البيولوجية - في الوقت الحاضر - خاصية أخرى من خواص الإنسان الفذة . .

« . . وهكذا يضع علم الحياة الإنسان في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات ، كما تقول الأديان . ومع ذلك هناك فروق ، وفروق هامة بعض الشيء بالنسبة لنظريتنا العامة ، فمن وجهة النظر البيولوجية لم تخلق الحيوانات الأخرى لخدمة الإنسان ، ولكن الإنسان تطور بصورة مكنته من التخلص من بعض الأنواع المنافسة ، ومن استعباد أنواع أخرى بالاستئناس ، ومن تعديل الأحوال الطبيعية والبيولوجية في معظم أجزاء اليابس من الكرة الأرضية ، ولم تكن وجهة النظر الدينية صحيحة في تفاصيلها أو في كثير مما تضمنته ، ولكن كان لها أساس جيولوجي متين^(١) .

« ولقد أدى الكلام والتقاليد والعدد إلى كثير من خواص الإنسان الأخرى التي لا مثيل لها بين المخلوقات الأخرى ، ومعظمها واضح معروف . .

« والإنسان لا مثيل له أيضاً كنوع مسيطر ، إذ انقسمت كل الأنواع الأخرى المسيطرة إلى مئات وآلاف كثيرة من الأنواع المنفصلة ، وتجمعت في أجناس وفصائل عديدة ومجموعات أكبر . أما الإنسان فقد حافظ على سيادته من غير انقسام . ولقد تم تنوع سلالات الإنسان في حدود نوع واحد .

« وأخيراً فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره .

« وللإنسان خاصية أخرى بيولوجية ، وهي تفرد تاريخ تطوره .

(١) لا يطبق جوليان - وهو ملحد - أن يسلم تسليماً كاملاً بأن وجهة النظر الدينية صحيحة ، ويحرص على القول بأنها كانت تشتمل على أخطاء . ومع ذلك فقد اضطرت كارها أن يقول إنها كانت تستند إلى أساس جيولوجي متين - أي أنها صحيحة . وقد حرصنا على أي حال - على أن نقل رأيه هنا كاملاً دون أن نحذف منه ما لا نوافق عليه . وعلى الرغم من التواءاته فهو واضح الدلالة .

« ونحن الآن في مركز يسمح لنا بتعريف نفرد الإنسان في تطوره . وإن خاصية الإنسان الجوهريّة ككائن حتى مسيطر لهي التفكير المعنوي .

« . . . ولقد كان بحثنا حتى الآن بطريقة عامة في خصائص الإنسان من ناحية التطور والمقارنة ، والآن نعود إليها ونبحث فيها وفي نتائجها بشيء من الإسهاب . فأولاً يجب ألا يغرب عن بالنا أن الفرق بين الإنسان والحيوان في العقل أعظم بكثير مما يظن عادة . . . وكلنا على علم بقوة الغريزة في الحشرات . . . ولكنها تبدو عاجزة عن معرفة طرق جديدة . . . وليست الثدييات بأفضل من ذلك . . . بينما للتفكير عند الإنسان أهمية بيولوجية كبرى حتى عندما تسود تفكيره العادة والمحاولة والخطأ . ولا بد أن يكون سلوك الحيوانات عرفياً أنه ثابت في حدود ضيقة . أما الإنسان فقد أصبح في سلوكه حراً نسبياً - حراً في الأخذ والعطاء على حد سواء وهذه الزيادة في المرونة نتائج أخرى سيكولوجية يتناساها رجال الفلسفة العقلية ، والإنسان أيضاً فريد في بعضها ، فلقد أدت هذه المرونة مثلاً إلى كون الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي لا بد أن يتعرض للصراع النفسي . . . ومع ذلك فطبقاً للأراء الحديثة توجد (في الإنسان) أجهزة لتقليل النزاع إلى أقصى حد ، وهي التي يعرفها علماء النفس بالكبت والقمع .

« وهذه الخواص التي امتاز بها الإنسان ، والتي يمكن تسميتها نفسية أكثر منها بيولوجية تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية :

« الأولى : قدرته على التفكير الخاص والعام .

« الثانية : التوحيد النسبي لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان .

« الثالثة : وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والعقيدة ، وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها .

« وهناك نتائج ثانوية كثيرة لتطور العقل من مرحلة ما قبل الإنسان إلى مرحلة الإنسان ، وهى بلا شك فريدة من الناحية البيولوجية ، ولندكر منها العلوم الرياضية البحتة والمواهب الموسيقية والتقدير والإبداع الفنيين والدين ، والحب المثلالي . .

« ولكن لا يكفى هنا أن نحصى بعض أوجه النشاط ، ففى الحقيقة أن معظم أوجه نشاط الإنسان وخواصه نتائج ثانوية لخواصه الأصلية ، ولذلك فهى مثلها فذة من الناحية البيولوجية . .

« وقد يكون لتفرد الإنسان نتائج ثانوية أخرى لم تستغل بعد . . وإن التجارب كتلك التى أجراها « بين بريلى » فى الحدس دون استخدام الحواس ، وتلك التى قام بها « جلبرت مراى » فى نقل الأفكار ، وكثرة الكتابة من وقت لآخر عن قراءة الأفكار والتنبؤ بالمستقبل لتوحى بأن لبعض الناس القدرة على المعرفة عن غير الطريق العادى للإدراك عن طريق الحواس .

« وبذلك قد يكون الإنسان فريداً فى أحواله أكثر مما نظن الآن ^(١) .

ربما نكون قد توسعنا بعض الشيء فى نقل النصوص من كتاب جوليان هكسلى - أكثر مما يطيقه هذا البحث الصغير - لا لأننا فى حاجة إلى الاقتناع بتفرد الإنسان . فتفرد الإنسان بديهية لا يحتاج « الإنسان » إلى الجدل فيها أو

(١) من كتاب الإنسان فى العالم الحديث « تأليف جوليان هكسلى » ترجمة حسن خطاب ومراجعة الدكتور عبد الحليم متصر . مقتطفات من ص ١ إلى ص ٣٦ .

التعب في الاهتداء إليها . وإنما لنعجب كيف انحرفت « الجاهلية » الأوروبية هذا الانحراف العجيب في القرن التاسع عشر ، حين آمنت - كما قال هكسلي - بحيوانية الإنسان . وكيف انطمست بصيرة العلماء فانجرفوا في التيار ، بمعنون في تشويه صورة الإنسان وإحاقه بالحيوان . .

كلا . لم تتوسع في نقل النصوص من كتاب « هكسلي » لنقنع أنفسنا بتفرد الإنسان وبعده عن الحيوان . . وإنما لنبين أنه ليس الوجدان الديني وحده هو الذى اهتدى إلى هذه الحقيقة ، بل إن « العلم » ذاته ، العلم الذى يقوله رجل ملحد لا يؤمن بالله ، قد اهتدى بعد طول الأرجحة والتعثر إلى أن النظرة «الداروينية» الأولى - التى أفسدت عقول أوروبا وأخلاقها وعاداتها وتقاليدها - لم تكن صوابًا ، مع استنادها إلى نظرية علمية . ذلك أن النظرية العلمية البحتة شىء ، وطريقة فهمها ، أو طريقة توجيهها أو طريقة التأثير بها ، شىء آخر قد يكون منفصلاً تمام الانفصال . والعلم طاقة « محايدة » ليس خيراً ولا شراً في ذاته . ولكن طريقة استخدامه وتوجيهه هى التى تولد منه الخير أو تولد الشر .

ولم يكن من الحتم - من نظرية « دارون » ذاتها ، وعل قلة المعلومات التى كانت متاحة له في وقته ، وتأثير هذه القلة في استخلاص النتائج منها - لم يكن من الحتم أن يؤمن العلماء بحيوانية الإنسان . فإن تطبيق نظرية النسوء والارتقاء هو ذاته يوحى بأن يكون للإنسان مقاييس خاصة غير مقياس الحيوان . . في عالم الحيوان تجد مقاييس جديدة للحيوان كلما ارتقى في سلم التطور . فالحيوان الذى له عينان لا ينطبق عليه ما كان ينطبق على حيوان سابق ليست له عينان . والحيوان الذى يرضع صغاره له في حياته مقاييس غير مقاييس الطيور التى تبيض وتحتضن البيض أو الحشرات التى تبيض وترتك البيض

للظروف . . أفلا يكون للإنسان الذى ارتقى عن الحيوان فى كذا وكذا .
مقاييس خاصة غير مقاييس الحيوان !؟

لقد كانت « الجهالة » هى التى تحرك أوروبا فى القرنين الماضيين ، فى
صميم الوقت الذى خيل للناس أن العلم هو الذى يوجه الحياة هناك .

الإنسان إذن إنسان !!!

حتى « جوليان هكسلى » الذى لا يؤمن بالله ، ولا يؤمن بأن الله قصداً فى
خلق الكون وخلق الإنسان ، ولا يؤمن « بروحانية » الإنسان ، ولم يورد ذكر
الروحانية قط فى حديثه . . حتى « جوليان » هذا يقول إن الإنسان إنسان ،
وإنه متفرد فى إنسانيته .

الحمد لله والشكر والثناء . . .

وإذن فكل الاتجاهات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأدبية
والفنية والـ . . . التى تفرعت عن الإيمان بحيوانية الإنسان كانت منحرفة
وخاطئة وغير جديرة بالاعتبار .

وقد كان يكفى - علمياً - أن نبين فساد الأساس الذى قامت عليه هذه
الاتجاهات كلها ، لنثبت أن هذه الاتجاهات - القائمة على أساس منحرف - لا
يمكن أن تكون سليمة ، ولا يمكن أن تكون على صواب .

ومع ذلك فسنمضى فى مناقشة تلك الآراء المنحرفة لنبين ما فيها من
انحراف ذاتى بصرف النظر عن انحراف الأساس .

فحين يقول التفسير المادى للتاريخ : إن تاريخ الجنس البشرى هو تاريخ
البحث عن الطعام (!) يغفل بديهية بسيطة واضحة ، يعجب الإنسان كيف
يتأتى لبشر إغفالها بهذه السهولة . يغفل أن تاريخ الحيوان كله هو كذلك

تاريخ البحث عن الطعام . فلماذا صار الإنسان إنساناً يا ترى وبقي الحيوان على حيوانيته مع أنهما مشتركان في الأصل وفي التاريخ ؟ لماذا أقام الإنسان النظم والأفكار والعقائد والحضارات والمصانع ، إن كان تاريخه هو مجرد البحث عن الطعام ؟ ولماذا لم يظل - كما ظل أسلافه من الحيوان - مثلاً - في نطاق الصيد والافتراس ؟

ألا تلتفت هذه البديهية النظر ؟ ألا تفتح البصيرة ؟

يبحث الإنسان عن الطعام . نعم هذه حقيقة . ويتأثر تاريخه بالبحث عن الطعام . نعم . هذه حقيقة . لأن الطعام « جزء » من حياة الإنسان . وكل جزء لا بد أن يؤثر في المجموع .

أما أن يكون تاريخه هو تاريخ البحث عن الطعام ، وتقوم على هذا نظريات وعلوم ، ويتخصص فيها علماء وفلاسفة ومفكرون ، فعجبية من عجائب الجاهلية الحديثة التي تقوم باسم العلم والعرفان !

هل يمكن أن يصل مخلوق إلى شيء ليس مهياً له ولا يملك إمكانياته ؟

أليس سلوك الحيوان ثابتاً كما قال « هكسلي » ، لا يتنوع ولا يتغير ولا يرتقى ، لأن الحيوان ليس مهياً لأكثر مما هو عليه ؟

أليس وصول الإنسان إلى إقامة النظم والأفكار والعقائد والحضارات يدل على أنه مهياً لكل ذلك وقادر عليه ؟ أليس يدل على أنه منذ نشأته يحمل الطاقة التي تنبت الأفكار والنظم والعقائد ، وأنه منذ نشأته - وبطبيعة احتكاكه بالكون من حوله - قد نبتت فيه البذور الأولى لهذه « المعنويات » كلها ، نباتاً أصيلاً منبثقاً من صميم كيانه ومن طبيعة تهيئه ؟ أليس يدل - بعد ذلك - على أنه - حتى وهو يبحث عن الطعام - وهو بحث دائم لا ينقطع إلى

هذه اللحظة وإلى الغد - لم يكن مستغرقاً في البحث عن الطعام وحده ، لأن في نفسه جوانب أخرى تبحث هي الأخرى عن غذائها ، وأنه - حتى وهو يبحث عن الطعام - لم يكن يبحث عنه بمعدته وحدها كما يفعل الحيوان ، ولا بمعدته وعقله فحسب ، بل بجوانب أخرى «أرقى» ، هي التي هدتته - مثلاً - إلى إنضاج الطعام وتسويته ، ثم إلى التألق في أكله والتألق في تقديمه ؟

أم نحن مخطئون؟!

وحين قال « فرويد » إن تاريخ البشرية هو تاريخ دوافعها الجنسية ، ثم حصر دوافعها الجنسية بعد ذلك في دوافع الحيوان ، فإنه أغفل بديهية بسيطة واضحة ، يعجب الإنسان كيف يتأتى للبشر أن يغفلوا بهذه السهولة . أغفل أن سلوك الإنسان الجنسي مختلف في طبيعته عن سلوك الحيوان .

فعلى فرض التسليم المطلق بالأسطورة البشعة التي ابتدعتها « فرويد » ليفسر بها تاريخ البشرية ، تاريخ عقائدها ، وأفكارها ، ونظمها ، وحضارتها . . على فرض التسليم المطلق بهذه الأسطورة التي ليس له عليها دليل ، فإنها هي ذاتها تبرز إنسانية الإنسان !!

اتجه الأبناء إلى أمهم بشهوة الجنس فوجدوا أباهم هو العقبة في طريقهم . . فقتلوه .

ثم أحسوا بالندم على فعلتهم .

فأقسموا ليقصدن ذكراه . . فنشأت العبادة .

ووجدوا أنهم سيقنتلون فيما بينهم للحصول على الأم . . فقرروا ألا يمسخها أحد منهم . . فنشأت « المحرمات » .

وقرروا أن يتعاونوا فيما بينهم بدل الاقتتال . . فنشأ التعاون الجماعى في حياة البشرية .

نعم . . وسنرضى - مؤقتاً - بهذه الأسطورة .

فماذا فيها؟

فيها أولاً : أنهم ندموا على فعلتهم .

وإذن ففي صميم الكيان البشرى ، في ظلماته الأولى ، قبل فجر التاريخ ، قيم أخلاقية للأفعال بجانب الدفعة الغريزية الخالصة .

الحيوان لا يندم على فعلته . ليس له تقدير خلقى لأفعاله . ليس له حاسة تقول له - فيما عدا الفعل المنعكس^(١) ، وهو حسى بحت - إن هذا العمل خاطئ أو إن ذاك العمل صواب .

ولكن هؤلاء الأبناء - كما يقول « فرويد » - ندموا على فعلتهم . وإذن ففي كيانهم حاسة تعطى للعمل قيمة خلقية ، ولا تترك الحكم عليه لدفعة الغريزة .

وقد تندفع الغريزة فتغلب على « الحاسة الخلقية » وتسكتها . نعم إن ذلك يحدث ، ولكنه لا يعنى أن الحاسة الخلقية غير موجودة ، أو أنها مفروضة على الإنسان من خارج نفسه دون أن يكون لها من الداخل رصيد . .

كلا ! فهذه الحاسة الخلقية جزء أصيل من كيان الإنسان . استعداد فطرى ينمى من الخارج ، أو يُضعف من الخارج . ولكنه دائماً هناك فى أعماق الفطرة ولو كره الحيوانات .

(١) فى الفعل المنعكس يرتبط الألم الحسى أو اللذة الحسية بعمل معين ، فيتعد عنه الحيوان أو يقبل عليه نتيجة هذا الارتباط . كما يمتنع الكلب عن دخول حجرتك لأنك ضربته على ذلك وآلمته ، وكما يقبل عليك ويداعبك إذا ربت عليه .

وفي الأسطورة ثانياً : أن الأبناء قرروا أن « يجرموا » على أنفسهم لوئاً معيناً من النشاط الذى تدفعهم إليه - فيما يزعم « فرويد » - دوافعهم الغريزية . .

وأياً كان الدافع على هذا التحريم فهو عملية إنسانية بحثة لا دخل فيها للسلوك الحيوانى . فمجتمع البقر الذى حكى عنه « دارون » لم يجرم على نفسه شيئاً قط فى هذا الموضع ، ولم يعتبر بملايين من أسلافه الذين قتلوا فى العراك على الأم ، ولم تمنعه جراحه الواقعة والمرئية من الاستمرار فى المعركة إلى نهايتها التى يتقرر فيها الظفر أو الهلاك .

وإذن ففى مقدور الإنسان أن يجرم على نفسه - مختاراً ، ومن أجل منفعته النهائية غير المرئية أو المحسوسة - ألواناً من النشاط الغريزى لا يستطيع تحريمها الحيوان . وذلك يستلزم أن يكون فى كيانه القدرة على الضبط - أو القمع والكبت كما قال هكسلى - وهى قدرة - كما قال هكسلى أيضاً - فريدة لا يملكها إلا الإنسان .

وفيهما ثالثاً : أن الأبناء قرروا أن يتعاونوا فيما بينهم ولا يقتلوا ، وهو أمر لا يحتاج إلى تعليق .

ولسنا - بعد - نؤمن بأسطورة « فرويد » . وليست وسيلتنا لإثبات إنسانية الإنسان أن نستمد البرهان من الأساطير كما يفعل العلماء المحققون ! فتاريخ الإنسان الواقعى فى الأرض غنى بالدلالات على إنسانيته . وإنما أردنا فقط أن نقول إنه حتى هذه الأسطورة البشعة التى تتمثل فيها أقدر صورة للبشرية ، تحمل فى أطوائها الدليل على إنسانية الإنسان !

ونحب أن نؤكد هنا حقيقة لم نكن فى حاجة إلى توكيدها ، لولا الجدل الطويل العريض الذى ثار بين النظريات المتنازعة فى أوروبا ، والذى وصل

بالمتناظرين إلى التطرف المعيب ، كل منهم يأخذ طرفاً من القضية ويجذبه إلى أقصى الغاية .

إننا حين نؤكد إنسانية الإنسان فإن ذلك ليس معناه أننا ننكر الجانب الحيوانى فيه .

كلا ! فالجانب الحيوانى فى الإنسان موجود دون شك . وإنه لحقيقة . ولكن الجانب الإنسانى موجود كذلك . وهو لا يتمثل فقط فى عقل الإنسان ونفسه وروحه ، وهى الجوانب التى تفردها وتميزها عن الحيوان ، بل يتمثل كذلك فى قيام الإنسان بضروراته الحيوانية على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان .

يأكل ويشرب ، ويلبس ويسكن ، ويقضى « ضرورته » ويستجيب لدوافع الجنس . . كل ذلك على طريقة الإنسان . الطريقة التى « تهذب » القيام بالضرورة ، وتحيطها بأداب معينة تلتطف غلظتها وتخفف من معنى «الضرورة» فيها ، إذ تجعلها سلوكاً وأدباً فيه ترفع وفيه « اختيار » .

هكذا يصنع الإنسان . وفى ذلك يتفاضل بشر عن بشر وجيل عن جيل . فكلما تهذبت المشاعر ونظف السلوك ، وخرجت الضرورة عن قهرها القاهر، فأصبحت سلوكاً مهذباً « مختاره » النفس ، كان الإنسان « أرقى » وأبعد عن الحيوانية . وكلما هبط الإنسان إلى عالم الضرورة ، بغلظتها كله ، وضاوتها كلها، ولم يعد «يختار» سلوكه فى أدائها بل يقضيها بدفعة الغريزة المباشرة وبأسلوب الغريزة ، كان ألصق بالحيوان وألصق بالأرض ، وكان راجعاً إلى الوراء . إلى الوحشية والهمجية والتأخر والظلام . .

وقد ظل هكذا إحساس الإنسان بنفسه ونظرته إلى سلوكه ، حتى اهتدى على يد « دارون » « وفرويد » إلى أنه لا يجوز له أن يصنع ذلك ، لأنه حيوان !

أما مادية الإنسان ، بمعنى حصره في نطاق حواسه ومحيطه المادى ، فقد كانت - على رأى هكسلى - تبدو نتيجة منطقية لنظرية « دارون » عن حيوانية الإنسان . فالحيوان محدود بنطاق حواسه ، ومن ثم كان الإنسان - الذى هو حيوان - محدودًا كذلك بالمحيط المادى وبما تدركه الحواس .

وفى ذلك أيضًا نترك آل هكسلى - اثنين منهم - يردان على هذا الزعم الباطل ، وإن كانا ملحدين ، لا يصلان إلى الاعتراف بقدرة الإنسان على الاتصال بالله :

يقول جوليان هكسلى : « وإن التجارب كتلك التى أجراها « بين تيريل » فى الحدس دون استخدام الحواس ، وتلك التى قام بها « جلبرت فراى » فى نقل الأفكار ، وكثرة الكتابة من وقت لآخر عن قراءة الأفكار والتنبؤ بالمستقبل ، لتوحى بأن لبعض الناس القدرة على المعرفة عن غير الطريق العادى للإدراك عن طريق الحواس » .

ويقول « ألدوس هكسلى » - وهو ملحد كذلك وإن كان أقل إلحادًا من أخيه جوليان : « إنه لم يعد لنا مناص من الاعتراف بأن بعض البشر مزودون بالقدرة على استشفاف المجهول بطريقة خارجة عن نطاق الحواس . وإن جهلنا بالطريقة التى تتم بها عملية الإدراك وعملية التذكر . من منا يستطيع أن يعرف كيف تتم معجزة الإدراك أو التذكر ؟ كذلك نحن لا نعلم كيف يتم الاستشفاف ، ولكنه رغم ذلك حقيقة علمية » . ثم أورد فى نهاية كلامه مقالة للدكتور « راين » أحد العلماء المشتغلين بهذه الأبحاث حيث قال : إن هذه الحقائق تدخلنا رويدًا رويدًا إلى عالم الدين .

ولسنا ننقل هذه الأقوال لئستمد منها البرهان على اتساع نطاق الإنسان وعدم انحصاره فى محيط المادة ومحيط الحواس . كلا . فلسنا فى حاجة إلى

شهادة « العلم التجريبي » في هذا الشأن ، والشواهد الملموسة في حياة البشرية غنية عن البيان . وإنما نوردتها فقط لتقول : إنه حتى العلم المادى الكافر لم يستطع أن يقف بالإنسان عند هذه الحدود الضيقة التى حصرته فيها «الداروينية» القديمة أكثر من قرن من الزمان .

ويعجب الإنسان بعد انقضاء تلك الفترة الطويلة من الجاهلية المظلمة التى تقوم باسم العلم ، كيف استطاع الإنسان أن ينتكس هذه النكسة ، فيتكبر لنفسه وطاقاته ، ويقعد كسيحاً محصوراً وهو يملك الرفعة والإنطلاق! كيف يسد على نفسه وسائل المعرفة إلا وسيلة واحدة ، مهما يكن من سعتها فهى ضيقة ، ومهما يكن من شمولها فهى جزئية ، ومهما يكن من تعمقها فهى لا تستطيع أن تدرك إلا ظواهر الأشياء . كيف يقطع صلته بالقوة العظمى وينعزل ، كما ينعزل الدود والهوام والأشياء ، وهو يملك - بالاتصال بهذه القوة - أن يوسع حياته ويوسع نفسه ويوسع صلته بالكون والحياة . . وأن يعيش مع أخيه الإنسان على أرحب نطاق شعورى وعملى . . على رباط الحب المتبادل ، ورباط العقيدة فى الله .

كيف . . إلا أن تكون النكسة إلى عالم الحيوان . نكسة ينفخ فيها «العلم» وباركها الشيطان .

إن الإنسان كائن ضخم هائل . إنه معجز . وأكبر الاعجاز فيه هو هذا المزيج العجيب من طين الأرض ونفخة الله العلوية فى روحه : «قبضة من طين الأرض تتمثل فيها عناصر الأرض المادية من حديد ونحاس وكلسيوم وفوسفور وأكسوجين وأيدروجين ، وتتمثل فيها شهوات الأرض ودوافع الأرض . ونفخة من روح الله فيها روح الإنسان الشفيفة القادرة على السمو والرفعة ، كما تتمثل

فيها الإرادة الضابطة والقدرة على الاختيار^(١) « فأى حماقة يرتكبها الإنسان حين يفصل عنصريه هذين - اللذين تتمثل في امتزاجهما معجزة القدرة القادرة - ثم يلقي بأحدهما بعيداً عنه ، ليكتفى بجانب واحد ، وهو يملك الجميع ؟ ولقد كان الإنسان - وهو يدمر طاقته على هذا النحو ، ويسعى بها إلى الانحلال - يبعد في الوقت ذاته عن فطرة الحياة كلها ، في الوقت الذي كان يتصعب عرقاً من البحث في ظواهر الحياة !

إن فطرة الحياة العميقة في الأحياء كلها - بله الإنسان - لا تكتفى بأداء «الضرورة» من أقرب طريق - كما زعم « دارون » وهو يدرس أجسام « الأحياء » - بل إنها تهدف دائماً إلى إحسان « الأداء » في ذات الوقت الذي تهدف فيه إلى « صحة » الأداء . أى أنها لا تكتفى بالضرورة وإنما تهدف إلى الجمال .

« رأيت هذه الزهرة الجميلة الفياحة الشذى المتناسقة الألوان ؟

« أتظن ذلك ضرورة ؟

« قالوا : لتجذب إليها النحل فينتج منها العسل غذاء وشفاء للناس .
وتساعد كذلك في تلقيح النبات .

فهل تظن ذلك ؟ هل من « الضرورة » بالقياس إلى النحل أن يكون في الزهرة كل هذا الجمال ؟

« كلا والله . فالنحل خلق متواضع . وإنه ليحط على الزهرة الأريحية الفاتنة كما يحط على الزهرة العادية الجمال .

« فليس جمال الزهرة إذن ضرورة . وكل الأهداف « البيولوجية » يمكن أن تتم في أبسط زهرة كما تتم في أجمل زهرة .

(١) من كتاب « قبسات من الرسول » .

« ورأيت هذه « الطبيعة » ؟
« ورأيت حمرة الشفق المبدعة ورأيت جمال الصبح الوليد ؟
« رأيت روعة الجبال التي تبهر الأنفاس وتهز الوجدان ؟
« والبحر الممتد إلى غير نهاية منسرب الموج ، تراه في الليل الساكن كأنها
تعمره الأطياف . . أو الأشباح ؟
« والليلة القمرء . . هل « ذقتها » ؟ و « ذقت » طعم السحر في ضوئها ،
وظلها ، وأطيافها الساربة وحديثها المهموس ؟
« هل تظن ذلك ضرورة ؟
« وأين هي الضرورة في ذلك كله ، والحياة ممكنة ومستطاعة بغير هذا
الجمال ؟
« ورأيت هذا الوجه الفاتن ؟
« هاتان العينان الحاملتان اللتان يطل منهما عالم عميق الأغوار . تلك
التقاطيع المنسقة . . هذا المعنى المعبر . تلك « الروح » التي تطل من وراء
القسبات ؟
« تظن ذلك ضرورة ؟ وما الضرورة ؟
« أليست كل العمليات البيولوجية « من طعام وشراب وتنفس تتم في أقبح
وجه وأجمل وجه على السواء ؟
« بل . . نداء الجنس ذاته . أليس يتحقق في كل أنثى وكل ذكر بصرف
النظر عن ذلك الجمال ؟
« كلا إنه ليس « ضرورة » . .

وإنها هو « جمال » .

« هو إحسان في الأداء لا مجرد الأداء .

« تلك فطرة الحياة كما خلقها الله . . فطرة الطبيعة » ^(١) .

تلك هي الفطرة التي نسيها الإنسان وهو يبحث في الظواهر المحسوسة للأشياء ، ونسى معها نفسه ، وهبط إلى عالم الضرورة ، يكتفى بأداء الضرورة من أقرب طريق ، ولا يهدف إلى الإحسان في الأداء . الإحسان الذي يحمل معنى التهذيب والارتفاع .

ولا عجب . فحين ينحرف الإنسان عن الله ، فهو ينحرف كذلك عن الفطرة ، ويرتكس في الظلمة إلى حماة الطين والعياذ بالله !

* * *

تلك قضية الحيوانية التي انبعثت من نظرية « دارون » ، وذلك مبلغها من الحق ومداهها من الضلال . .

أما القضية الثانية التي انبعثت من تلك النظرية فهي قضية التطور الدائم الذي يلغى عنصر الثبات .

كانت فكرة التطور شيئًا جديدًا على الفكر الأوروبي في نهاية القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر . كانت « ترفا » عقليًا يناقشه العلماء فيما بينهم ويؤلفون فيه ، ولكنها لم تصبح فكرة « شعبية » ولم تأخذ صورتها الحادة إلا بعد نظرية « دارون » ، فقد وجدت في تلك النظرية سندًا علميًا كان يعوزها من قبل ، سندًا من صميم فطرة الحياة . ومن ثم ملأت تفكير العلماء بصورة

(١) من كتاب « قبسات من الرسول » : فصل : « وليم ديبحتة » .

جدية ، ومن هناك انتقلت إلى أفكار الجماهير ، فتلقفوها بما يشبه اللوثة ، وصاروا يفسرون بها كل شيء على ظهر الأرض ، ويحيل إليهم - من شدة اللوثة - أن الحياة كلها بلا قواعد ، والكون كله بلا ناموس !

وكان التفكير الدينى خاصة قد ألح فى فكرة الثبوت فى العصور الوسطى حتى جعلها عقيدة حين ظن رجال الدين أن ثبوت الخالق - سبحانه - وثبوت قصده من الخلق ، معناه ثبوت كل شيء من خلقه ، ومعناه ثبوت الإنسان بنظمه وعاداته وتقاليده ، وكل ما حوله من شئون تتصل بحياته . وأغراهم بهذا الظن - كما قلنا فى الفصل السابق - ما كان شائعاً فى علوم ذلك العصر من فكرة الثبات . . . لذلك كانت فكرة التطور - بعد إثباتها من جانب العلم - صدمة أفقدتهم اتزانهم فراحوا يجبطون فى كل واد « ويحسبون أنهم مهتدون !

وذلك فى القرن التاسع عشر !

بينما كان علماء المسلمين قبل ذلك بعشرة قرون قد فرقوا تفريقاً واضحاً بين ثبات الخالق - سبحانه - وتطور خلقه . .

يقول « درير » الأمريكى فى كتابه : « النزاع بين العلم والدين » :

« وإننا لندهش حين نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر . ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذى يعتبر مذهباً حديثاً ، كان يدرس فى مدارسهم . وكانوا قد ذهبوا منه إلى مدى أبعد مما وصلنا إليه ، وذلك بتطبيقه على الجمادات والمعادن أيضاً » .

وكذلك أحس المسلمون إحساساً واضحاً بتطور الحياة البشرية ، فكتب ابن خلدون فى مقدمته - وهو فى الحقيقة أول عالم اجتماع بالمعنى العلمى الحديث - يصف تطور المجتمعات ، والعوامل المختلفة التى تؤثر فى ذلك

التطور. كما أن الفقه الإسلامي ذاته تطبيق عملي لفكرة التطور البشرى . ذلك أن مهمته الدائمة هى البحث عن حلول جديدة مستمدة من أصول الدين وروحه ، لمواجهة ما يجد من مشاكل البشر وحاجاتهم ، أو كما قال عمر بن عبد العزيز: « يجيّد للناس من الأفضية بقدر ما يجد لهم من القضايا » .

ولو كان رجال الدين فى أوروبا فى القرن السابع عشر والثامن عشر فى مثل هذا الفهم الناضج الذى كان عليه المسلمون فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) لماصدمتهم بحوث العلم الجديدة ، ولا قامت النفرة بينهم وبين العلم ، تلك النفرة التى أدت بأوروبا إلى الهاوية فى نهاية المطاف .

* * *

الحياة البشرية تتطور . نعم . والكون كله يتطور . . فهل معنى ذلك أنه لا توجد قواعد ثابتة فى هذا الكون وفى الحياة البشرية ؟

السدّم تتطور إلى نجوم . . والنجوم تتطور وهى تدور ، فتسخن وتبرد ، وتنبعج وتتكور ، وتسرع وتبطئ . . . ولكن شيئاً من ذلك لا يحدث بلا قانون ، وشيئاً من ذلك لا يحدث مخالفاً للناموس . الناموس الذى يكشف العلم طرفاً منه كلما تسرت له الوسائل وأتيحت له الأدوات .

والإنسان يتطور . . تتغير حياته يوماً عن يوم . ويستحدث شيئاً كل يوم . ولكن مع ذلك خاضع للنواميس . النواميس ذاتها التى تحكم الكون وتحكم الحياة .

يتطور الكون . . فهل تتغير طبيعته ؟ هل يتغير تكوينه من مجموعة من الطاقات ؟

كلا ! لم يقل بذلك أحد من العلماء . وإنما تتغير صورته وحالاته ، ويظل جوهره ثابتاً على ما هو عليه .

والإنسان كذلك يتطور . . . فهل تتغير طبيعته ؟ أو تتغير صورته وحالاته
ويثبت الجوهر الذى فيه ؟

وما الذى تغير فى كيان الإنسان على المدى الطويل والتقلب الدائم بين
مئات من الظروف والأحوال ؟

لقد أحدثت الثورة الصناعية تحولات كبيرة فى سير المجتمع الأوروبى ،
تحولات اجتماعية واقتصادية وسياسة وفكرية وخلقية . . فخيّل للناس فى
وهلتهم من التحول السريع المتلاحق أن كل ما حدث جديد كل الجدة ، لم
يحدث له شبيه من قبل ، ومن ثم ركبهم هذا الوهم : أنهم خلق جديد لا
ارتباط بينه وبين الخلق السابق ولا تشابه . وإذن فليس هناك خط متصل فى
الحياة البشرية ، ولا كيان ثابت اسمه الإنسان .

ولو كانوا أعقل من ذلك وأرزن ، أو لو كانت فكرة التطور مألوفة لديهم -
كما كانت مألوفة فى الفكر الإسلامى - ما اشتطوا هذا الاشتطاط كله ، وما
وقعوا فى هذا الوهم الخطير .

ما الذى تغير فى كيان الإنسان فى تلك الأمواج المتلاطمة التى أحدثتها
الثورة الصناعية ؟

هل تغير بحثه عن الطعام أو بحثه عن الجنس أو بحثه عن الأمن أو بحثه
عن البروز والتميز ؟

هل تغير تركيبه النفسى من دوافع فطريه جياشة وقوة ضابطة وإعية أو غير
واعية ، قوية أو ضعيفة ، عاملة أو غير عاملة ؟

هل تغير نزوعه إلى البقاء ؟ ونزوعه إلى الامتداد ؟ ونزوعه إلى المعرفة ؟ ونزوعه
إلى الخلود ؟

وهل تتغير هذه أبدًا؟ . . أم تتغير الصور والحالات ، ويظل الجوهر بدون
تغير؟

إنه لا يجوز أن نجدنا تنوع المطالب وتنوع الظروف . فالصور والأشكال هي
التي تنوعت في الواقع ، ولكن الرغبات الرئيسية والمخاوف الرئيسية لم تكند
تتغير . وهذه هي « الكيان » الذي يسمى الإنسان .

يرغب الإنسان في الطعام . فيأكله فريسة نيئة ، أو عشبًا من الأرض ، أو
يأكله مطهونًا في بساطة ويده تنهش بلا أدوات . أو يأكله على المائدة الفاخرة
بالشوكة والملعقة والسكين في تألق وترفق وأناة .

ما الذي تغير ؟ طريقة الأداء أم الرغبة الكامنة في الطعام ؟

ويرغب الإنسان في الجنس . فيقضيه كالحیوان في الغابة . أو يقضيه في
بساطة وسرعة . أو يقضيه في تألق وغزل وتفنن . يقضيه خلسة مغمصة في
ظلمة المشاعر . أو يقضيه في اطمئنان نفسى في ظل شريعة وقانون . . ما
الذى تغير ؟ طريقة الأداء أم الرغبة الكامنة في الجنس ؟

ويرغب الإنسان في المسكن فيضع في الغابة كوخًا من جذوع الأشجار ،
وفي القرية كوخًا من الطين أو بيتًا من الآجر ، وفي المدينة ينشئ عمارة مزودة
بأحدث الوسائل وأحدث الأدوات . . ما الذى تغير ؟ هل تغيرت الرغبة في
السكن أم تغير الشكل والأسلوب ؟

ويرغب الإنسان في ارتداء الملابس للزينة ولدفع غوائل الجو ولغير ذلك من
الأسباب . فيصنع في الغابة رداء من الجلد ، وفي البيداء رداء من الوبر ، وفي
الصقيع رداء من الفرو ، وفي المدينة رداء من النسيج المختلف الألوان . . ما
الذى تغير ؟ هل تغيرت الرغبة في ارتداء الملابس أم تغيرت الصور والأشكال ؟

ويرغب الإنسان في وسائل الراحة فيصنع فراشاً من ورق الشجر تارة ، ومن ريش النعام تارة ، ومن القطن المندوف تارة ، ومن المطاط المحشو تارة ، ما الذى تغير ؟ هل تغيرت الرغبة فى الراحة أم تغيرت الوسائل والأشكال ؟

ويخشى الإنسان الموت . يخشاه فى الغابة ، ويخشاه فى القرية ، ويخشاه فى المدينة ، ويخشاه فى البر ، ويخشاه فى البحر ، ويخشاه فى الهواء . ويتخذ لذلك مشاعر شتى وتحايلات شتى وتمحوظات شتى . . فما الذى يتغير ؟ الخوف المتأصل أم المظاهر والأشكال ؟

ويتشاجر الرجل مع زوجته . . يتشاجر معها لأنها لم تحضر له « القلة » امشرب ، أو يتشاجر معها لأنها تصر على وضع كلبها المدلل إلى جانبها فى الفراش ، أو لأنها تذهب بدون إخطاره أو إذنه حيث تشاء . . فهل الذى تغير هو المظهر أم تغيرت القضية الخالدة ، قضية الرجل والمرأة ، أيهما صاحب الرياسة والسيطرة ، والسفينة لا تحمل عادة اثنين من الرؤساء !

ويكدح الإنسان من أجل العيش . يكدح بالصيد فى الغابة ، ويكدح بالزراعة فى الأرض ، ويكدح بالعمل فى الديوان ، ويكدح بالعمل فى المصنع . ما الذى يتغير ؟ مظاهر الكدح أم الواجب الذى لا يحصى عنه ؟

وغيره وغيره مئات من المشاعر ومئات من الأفكار ومئات من الأعمال . .

«إن فى الإنسان عنصراً ثابتاً لا يتغير مهما تغيرت ظروفه ومهما تغيرت حياته على الأرض ، لأنه يتصل بحقائق أزلية لا يدركها التغيير . وفيه إلى جانب ذلك عنصر متغير . أوقل : صور متغيرة من الجوهر الثابت ، وحالات متطورة للكيان الدائم ، ولكنها فى تغيرها وتطورها لا تخرج بالإنسان عن كونه الإنسان ، ولا تنفصل لحظة واحدة من كيانه الدائم ، بحكم وحدة النفس

الإنسانية وتربطها ، وشمولها لكل ما يشتمل عليه الإنسان .

هناك حقائق أزلية في تكوينه :

« أنه صدر عن إرادة الله : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة(١) » .

« وأن البشر جميعًا من نفس واحدة : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة(٢) » .

« وأن من هذه النفس - أى من جنسها - قد خلق « الزوج » الذى يكملها ويلتقى بها ويوائمها : « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها(٣) » .
«ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة(٤) » .

« وأن من هذه النفس وزوجها انبث الخلق كلهم والقبائل والشعوب :
« خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء(٥) » . « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم(٦) » .

« وأن الإنسان قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله . قبضة من طين الأرض تتمثل في عناصر الأرض المادية من حديد ونحاس وكلسيوم وفسفور وأكسجين وأيدروجين ، وتتمثل فيها شهوات الأرض ودوافع الأرض . ونفخة

-
- | | |
|--------------------------|---------------------------|
| (١) سورة البقرة « ٣٠ » . | (٤) سورة الروم « ٢١ » . |
| (٢) سورة النساء « ١ » . | (٥) سورة النساء « ١ » . |
| (٣) سورة النساء « ١ » . | (٦) سورة الحجرات « ١٣ » . |

من روح الله تتمثل فيها روح الإنسان الشفيفة القادرة على السمو والرفعة ، كما تتمثل فيها الإرادة الضابطة والقدرة على الاختيار : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين»^(١) « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين»^(٢). و «نفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاهها ، وقد خاب من دساها»^(٣).

« تلك عناصر ثابتة لا تتغير مهما تغيرت « مظاهر » الحياة .

وإلى جانب ذلك عنصر متغير . أو قل « صور » متغيرة من الجوهر الثابت و « حالات » متطورة للكيان الدائم . ولكنها في تغيرها وتطورها لا تخرج الإنسان عن كونه إنساناً ، ولا تنفصل في لحظة واحدة عن كيانه الدائم ، بحكم وحدة النفس وتربطها ، وشمولها لكل ما يشتمل عليه الإنسان .

« وقد ترتب على الحقائق الأزلية حقائق أخرى ، فصارت مثلها خالدة دائمة لا تتغير .

« ترتب عليها أن يحس الناس - بفطرتهم ما دامت سليمة - يحسوا بعظمة الله بالقياس إلى ضآلتهم ، فيعبده ، ويستمدوا منه العون في الحياة .

« وترتب عليها أن يحس الزوجان - اللذان خلقهما الله من نفس واحدة - بحنين والتصاق بعضها ببعض ، وأن وجودهما لا يتكامل إلا متحدين متوادين متراحين .

« وترتب عليها أن يحس الناس - حين تصفو سريرتهم وتنظف نفوسهم -

(١) سورة المؤمنون « ١٢ » .

(٢) سورة الحجر « ٢٩ » .

(٣) سورة الشمس « ٧-١٠ » .

بالأخوة في الإنسانية ، إذ هم جميعاً من نفس واحدة ذات رحم مع الجميع ،
فيتعاونوا أو يتشاركوا في الخير . . .

« تلك عناصر دائمة لأنها ترتكز على أسس دائمة »^(١) .

وتلك هي الأسس التي تقوم عليها العقيدة ، وتقوم عليها الأخلاق .

* * *

العقيدة في الله عنصر ثابت في النفس البشرية . عنصر قائم في صميم
القطرة ، يهدي البشرية إلى خالقها ولو لم تنبه إليه . وإنما الانحراف الذي
يحدث هو انحراف في طريقة تصور الله ، وليس انحرافاً عن الإيمان بأن هناك
قوة - ما - خالقة قادرة ، هي التي خلقت الكون والحياة والإنسان^(٢) . ومهمة
الأنبياء والرسل الدائمة هي هداية البشرية إلى التصور الحق ، الذي تتبع منه
بعد ذلك المشاعر الصحيحة والسلوك الصالح والتنظيم السليم .

هذه العقيدة لم « تتطور » كما يزعم التفسير المادى للتاريخ أو غيره من
الدراسات الاجتماعية التي ظهرت في القرنين الأخيرين . إن عبادة الأب وعبادة
الطوطم وعبادة الوثن لم تكن هي تطور العقيدة الذي وصل في النهاية إلى
التوحيد . إنما هذا كان تطور الانحراف البشرى عن العقيدة الصحيحة في
عصوره المختلفة . وليس صحيحاً - من التاريخ - أنه مرت على البشرية سلسلة
منتظمة من العقائد الضاللة أدت في النهاية إلى التوحيد . إنما الثابت - من
التاريخ - أن البشرية مرت في دورات متعاقبة من الهدى والضلال . من
التوحيد والتعدد . من التجريد والتجسيم .

(١) من كتاب « قبسات من الرسول » .

(٢) الذين لا يؤمنون بوجود الخالق أصلاً قلة شاذة لا يكاد يحسب لها وجود .

وكل « التطور » البشرى لا يمس هذا العنصر الثابت في جوهر الكون
وصميم الإنسان ، إلا حين ينحرف عن التصور الصحيح ، وحتى حينئذ
فالتطور يشمل الصورة ولا يشمل الأساس .

وليس في حياة البشرية - على اختلاف ظروفها وتطور أحوالها - سوى أحد
وضعين متقابلين الهدى أو الضلال في التصور . . العقيدة المستقيمة أو
العقيدة المنحرفة عن سواء السبيل .

وليس للإنسان وضع - على اختلاف ظروفه وتطور أحواله - إلا أحد هذين
الوضعين المتقابلين ، سواء في ذلك إنسان المدينة أو سكان الغابات .

ومن ثم فالبشرية في واقعها ذات طورين اثنين ، متعاقبين متغايرين : إما
الهدى وإما الضلال .

أما « الأطوار » التى يذكرها التفسير المادى للتاريخ ، والتى يوهم بها أن
هناك خطأ صاعدًا في الحياة البشرية ، صاعدًا أبدًا ، ومتقدمًا أبدًا إلى الأمام
. . هذه الأطوار ترسم الظاهر ولا تدخل إلى الأعماق . إنها ترسم التطور
المادى للحياة البشرية ، ولكنها لا تصف حقيقة الحياة البشرية .

إن هناك خطأ واحدًا صاعدًا على الدوام هو خط « العلم » ، لأنه بطبيعته
كذلك . كل خطوة فيه تؤدي إلى ما بعدها ، إلى ما هو أكبر منها . أما الخط
« النفسى » فليس كذلك . إنه لا يصعد على الدوام ولا يسير في خط مستقيم .
إنه يصعد وينتكس ، ويستقيم ويعوج ، ويهتدى ويضل على مدار التاريخ :
« لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين » . ومدار
هذا « التطور » أو التغير ، هو الاعتقاد المنحرف أو الاعتقاد السليم . ومرده إلى
شعور الإنسان بنفسه ، ووعيه بما ركب فيه من طاقات مختلفة ، وطريقة نظرتة
إلى الحياة .

أما التطور المادى الذى يحدث ، والتطور الاقتصادى والتطور العلمى . . فكلها تحدث آثارًا مؤقتة فى النفس البشرية ، ثم لا يلبث التأثير أن يزول وتتلبذ عليه النفس ، وتعود إلى عاداتها ومألوفها وكيانها الداخلى الذى يحكمها . . كما يعود الجسم على الدواء الجديد فيفقد مفعوله بعد فترة ولا يعود له على الجسم تأثير .

إنها التغير الحقيقى هو الذى يجيء من داخل النفس . . من أفكارها ومشاعرها . . من نظرتها إلى ذاتها ونظرتها إلى ما حولها . . من تحديدها لمهمتها وأهدافها . . من تقديرها لدورها ومركزها .

هذا هو التغير الحقى ، وليس هو السيارة أو الطائرة أو الحمار !

* * *

إن مقياس الحضارة ، و مقياس « التطور » ، ليس فيما يصنعه العقل البشرى من مصنوعات مادية ، وليس فيما يهتدى إليه من « علوم » . ولكن فى طريقة تأثره بذلك كله ، ومدى ارتفاعه أو انخفاضه فى مقياس « الإنسان » الذى يختلف عن مقياس « الحيوان » .

مقياس التقدم أو التأخر بالنسبة للإنسان ، هو مدى استخدامه للمزايا التى « تفرد » بها عن الحيوان - وبالتالى هو مدى بعده عن الحيوان وعوده فى المجال الذى تتجه له مزاياه . ولئن كانت العدد والآلات - كما قال « جوليان هكسلى » من الخصائص التى تميز بها الإنسان ، فإنها - كما قال « هكسلى » كذلك - ليست المزية الوحيدة ، وهى ليست منفصلة عن بقية الكيان . ومن ثم لا تصلح - وحدها مقياسًا للحضارة ، ولا مقياسًا لتقدم الإنسان ، ما لم ترتبط بالمزايا الإنسانية الأخرى ، وتدفع بها إلى الأمام .

«إن المقياس الحقيقي لعظمة الإنسان ليس هو جهاز الراديو أو التليفزيون الذى يملكه ، ولا السيارة التى يركبها ، ولا جهاز الغسيل الآلى ، ولا القبلة التى يدمر بها الحياة على وجه الأرض . . وإنما هو أثر ذلك كله فى مشاعره وعواطفه و كيانه النفسى على وجه العموم . فإذا كان يصل به إلى فكرة عن الإنسانية أوسع وأشمل ، وفكرة عن الحياة أكبر وأرفع ، فقد ارتقى الإنسان حقاً بكل ذلك . أما إذا كان يضيق مشاعره إلى نطاق الأنانية المزدولة ، ويعكف به على ملذات الجسد الملهوفة فقد انحطت البشرية ، رغم هذا البريق الذى يخطف الأبصار» (١) .

والدليل على ذلك . . الدليل على أن مقياس التقدم البشرى ليس هو المادة، وليس هو التقدم العلمى ، وليس هو وسائل الإنتاج . . الدليل هو أوروبا فى القرن العشرين .

أوروبا فى القرن العشرين قد وصلت إلى ذروة من العلم والقوة المادية وضخامة الإنتاج لم تعرف لها البشرية مثيلاً منذ مولدها إلى اليوم . .

وأوروبا فى القرن العشرين قد وصلت إلى مستوى من الهبوط الخلقى والروحي لم تعرف البشرية أسوأ منه فى جاهليتها القديمة والحديثة على السواء .

وحين قال « برتراند رسل » الفيلسوف الإنجليزى المعاصر إن سيادة الرجل الأبيض قد انتهت ، لم يقل ذلك لأن الرجل الأبيض قد خلا من العلم ، أو فرغ من التقدم المادى ، أو توقف عن الصعود الدائم فى عالم الإنتاج ، ولكنه قال ذلك لأن الرجل الأبيض قد فرغ من الداخل . فرغ من العقيدة الصالحة ، فرغ من الروح ، فرغ من الأخلاق بمعناها الإنسانى الواسع لا بمعناها النفعية الضيق الذى يمارسه الغرب فى وقته الحاضر .

(١) من كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » .

ولو كان التقدم العلمى ، أو الإنتاج المادى ، أو غيره من الأشياء الموجودة فى خارج النفس له الأثر الحاسم فى تكييف النفس البشرية ، لوجب أن يرتفع الغرب اليوم إلى القمة الإنسانية العليا فى كل ميدان من ميادين السلوك البشرى . ولما وجد هذا الوجه الكالح الكريه الذى يطل به الغرب على العالم اليوم : التميز العنصرى ، والاستعمار ، والانحلال الخلقى ، والانحطاط الروحى ، والصراع الكريه على التوسع والتملك على حساب الكرامة البشرية ، والفتن المدمر الذى يعيش فيه العالم من خوف الحرب والملاك .

وما أتفه تلك الكذبة الكبيرة التى قالت إن الطائرة اليوم قد قربت أقطار العالم بعضها إلى بعض ، ومن ثم أحس الناس بقرب المكان ووحدة الإنسان ووجوب التعاون بين البشرية . أو - كما قالوا - صار العالم أضيّق من أن يُتنازع فيه !

ما أتفه هذه الكذبة الكبيرة . أفلا ينظر الناس حولهم وهم يتكلمون ؟! السلام هو الذى يسود العالم اليوم بعد أن قربته إلى بعضه الطائرة والصاروخ ؟ أم هو النزاع البشع الذى لم يحدث له مثيل فى التاريخ ؟

إنها المشاعر من الداخل ، وليست الطائرة وليست الصواريخ .

ومن ثم كانت العقائد هى أضخم شىء فى حياة البشرية . فهى المحرك الذى يحرك النفس من الداخل . هى الموجه إلى شتى صنوف العمل وصنوف السلوك وصنوف الوجدان .

ومن ثم ذهبت فى حياة البشرية حضارات مادية كثيرة ، واندثرت أو بقيت آثارها صماء جامدة خاوية من الحياة . . وبقيت العقائد . على كل ما أصابها من انحراف وتشويه . وبقيت على كل ما لوثتها تصورات بشرية

فاسدة . . بقيت هي الملجأ الأخير والضوء المنير في الظلمات .

* * *

والأخلاق كذلك قضية ثابتة .

فالأخلاق - من ناحية - هي التطبيق الواقعي للعقيدة . وهي - من ناحية أخرى - طريقة تعامل الإنسان مع نفسه ومع الناس . وهذه محكمة بروابط أزلية ثابتة لا يغير منها مرور التاريخ : محكمة بتكوين الإنسان من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله ، وبانثاق الناس من نفس واحدة خلق منها زوجها وانث منها هي وزوجها الشعوب والقبائل والأجيال .

تلك مسألة تاريخية لا تتغير مهما تغيرت حوادث التاريخ ، فمهما اخترع الإنسان من صواريخ وطائرات وثلاجات وغسالات ، ومخ إلكتروني وأجهزة ذرية ، فلن يستطيع أن يغير حقيقة وجوده السابقة - وأنه والناس جميعاً من أصل واحد ، ومن « نفس » واحدة . .

والأخلاق قد انبثقت من هذه الحقيقة . إنها لم تنبثق من المخترعات الإنسانية المتطورة ، ولا من البيئة الزراعية أو الصناعية أو الذرية . لم تنبثق من عنصر متغير . وإنما انبثقت من عنصر ثابت هو الكيان الإنساني ذاته ، وما ألقاه عليه وجوده الإنساني من تبعات . ومن ثم كان لها أساس ثابت ولو تأثرت مظاهرها بالتغيرات .

وكما ينحرف الإنسان عن العقيدة السليمة فكذلك ينحرف عن الأخلاق . ولكن هذا ليس معناه - كما يفهم السادة « العلماء » الأفاضل في الغرب - أنه ليس هناك أساس ثابت للأخلاق ! معناه فقط أن الناس ينحرفون عن الأساس الثابت حين تفسد فطرتهم فيضلون سواء السبيل .

بل لنفرض جدلاً أن الإنسان لم يسلك سبيل الأخلاق الصحيحة إلا فترات نادرة من حياة البشرية . فذلك لا يعنى أبداً أن الأخلاق قيمة متغيرة ليس لها أساس ثابت . معناه فقط أن الإنسانية دائمة الانحراف وهى فى حاجة دائمة للتقويم .

إن الأمراض الجثمانية دائمة الانتشار فى كل عهود التاريخ ، ويندر أن يوجد أحد لا يصبه المرض مرة فى حياته أو مرات . . فهل معنى ذلك أنه لا يوجد معيار للصحة ولا قواعد للقياس ؟

والأمراض الخلقية كذلك . . إنها دائمة الانتشار فى كل عهود التاريخ . ويندر أن يوجد فرد لا يصبه المرض مرة فى حياته أو مرات . . ولكن هذا ليس معناه أنه لا يوجد معيار للصحة النفسية ولا قواعد للقياس . . .

والمعيار فى المسألة واضح . فالإنسان - كما قال « هكسلى » - إنسان . وهو متفرد متميز عن الحيوان . ومن ثم ينبغى له أن يحقق كيانه الإنسانى المتميز، ولا ينحرف إلى حياة الحيوان .

ومن مزايا الإنسان - كما قال « هكسلى » - الضبط والإرادة وحرية الاختيار بين الدوافع وعدم الخضوع المطلق لدفعة الغريزة . تلك مزاياه التى ميزته عن الحيوان . فإذا استخدمها فهو إنسان فاضل . إنسان ذو أخلاق . وإن انحرف عنها فهو منحدر إلى أسفل . . وهو خاطئ ولو ظل على خطئه ألف عام ، ما دام فى كيانه - كما قال العلم - قدرة على تحقيق مزايا الإنسان .

ولكن هذه الحسبة البسيطة قد أعيت العلماء فى أوروبا وحيرت أفهامهم حين آمنوا بحيوانية الإنسان . . فالحيوان - فى الواقع - لا يملك معايير ثابتة ، ولا مقياساً للأخلاق !

* * *

والثقائيد قد تختلف قضيتها قليلاً . . ولكنه اختلاف في الحقيقة غير كبير.
الثقائيد أكثر مرونة من قواعد الأخلاق ، لأنها تطبيق سلوكي للفكرة الخلقية . وكثيراً ما تتعدد قوالب السلوك وإن اتحدت القواعد والأهداف . ومن ثم لا تلتزم الثقائيد - في ظاهرها - قوالب ثابتة ، وتتغير كثيراً على مدار التاريخ .

وتغير الثقائيد ليس ضاراً في ذاته ، ولا هو مشكل يحتاج إلى حلول .
إنما الذي يضر دائماً هو خروج الثقائيد عن القواعد الخلقية ومقررات العقيدة والإيمان بالله .

يتقدم الشاب لخطبة الفتاة ، ثم يدفع المهر مائة سوط يتحملها في صمت ، أو مائة بقرة يدفعها لأهلها ، أو مائة جنية ، أو تشتري الأستران في النفقات . . ويحضر متاعه لنفسه أو تحضره أسرة العروس ، أو يتفق العروسان على التعاون معاً في الإعداد . . كل هذه ثقائيد تتغير ، ولا ضير في أن تتغير . إنها الضير حين تخرج الثقائيد عن فكرة الزواج ذاته ، وتقلب إلى بغاء . . أى لون من البغاء . . .

وتتولى الأم موضوع الخطبة أو تتولاها الخاطبة ، أو يخاطب الفتى لنفسه . . كلها ثقائيد تتغير ، ولا ضير في أن تتغير . إنها الضير حين لا تكون هناك خطبة ، بل لقاء للاستمتاع على طريقة الحيوان .

وتتكون الأسرة من الأجداد والآباء والأبناء والأحفاد ، كالمهرم الذي تتسع قاعدته بلا انتهاء . . أو تقتصر على الزوج والزوجة والأبناء . . وتقيم الحماة في المنزل أو تقيم على البعد . . وتتدخل الأم بالنصيحة أو تترك الزوجين يتفاهمان . . كلها ثقائيد تتغير ، ولا ضير في أن تتغير . وإنما الضير حين

تنقطع روابط الأسرة لأسباب عاطفية أو أسباب اقتصادية أو تنظيم تقيمه الدولة . . أو غير ذلك من الأسباب .

فليست التقاليد إذن - على مرونتها - مطلقة من القواعد الثابتة في كيان البشرية : الأخلاق والعقيدة . وإلا فهي انحراف يؤدي إلى نتائج المحتومة ، ولو قبلها العرف ، وألفت في تبريرها المؤلفات !!

* * *

تلك قصة التطور في صورتها المعقولة التي يؤيدها الواقع . لا في صورتها المجنونة التي فتنت الناس في أوروبا في الفترة الأخيرة .

جوهر ثابت وصور متغيرة . . في الكون والحياة والإنسان سواء . والتغير الدائم لا يلغى القواعد الثابتة ، ولا يطلق الإنسان من عقاله ، يفسد في الأرض ويرتكس إلى حماة الحيوانات ، ثم يقول إنه يتطور ويتقدم إلى الأمام .

أما « حثيمة » التطور فقد كانت فتنة جائحة ولا تزال !

وأبرز ما تكون هذه الحثيمة في التفسير المادى للتاريخ ، الذى يحدد مراحل حثيمة التطور ، ويقول في صراحة : إنها لا علاقة لها بإرادة الإنسان !

وحتى الذين لا يؤمنون كل الإيحاء بالتفسير المادى في أوروبا - وهم قلة قليلة - فهم يؤمنون بالحثيمة من جانب آخر ، جانب ضعف الفرد بمفرده ، وعجزه عن أن يقف في وجه المجتمع ، وفي وجه التطور « الحثمى » الذى ينشأ من تغير الظروف والأحوال .

كلاهما يؤمن بسلبية الإنسان !

وقد كانت « الداروينية » هى السبب المباشر في الإيحاء بهذه الحثيمة ، لأنها

رسمت خطا معيناً للتطور ، ثم قالت : إن الكائن الحى لا يملك الإفلات من ضغط التطور عليه ، ولا يملك إلا أن يستجيب لظروف البيئة من حوله . . والبيئة هى التى ترسم له الطريق .

ولم يزد التفسير المادى للتاريخ على أن نقل الحتمية إلى مجال الإنسان - كواحد من صنوف الحيوان - وطبقها على كل ألوان نشاطه الفردى والاجتماعى ، وقال إنه وحده هو التفسير العلمى الصحيح !

وهكذا نجد هنا أيضاً أن المسألة نابعة فى النهاية من حيوانية الإنسان !

وكان يكفى أن نعود إلى كلام « جوليان هكسلى » لنرد على مزاعم التفسير المادى للتاريخ حيث يقول فى الحديث عن تفرد الإنسان : « وأخيراً فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية فى طريقة تطوره » أو يقول : « وللإنسان خاصية أخرى بيولوجية ، وهى تفرد تاريخ تطوره » أو يقول : « أما الإنسان فقد أصبح فى سلوكه حراً نسبياً - حراً فى الأخذ والعطاء على حد سواء . . » أو يقول : « ولكن الإنسان تطور بصورة مكنته من التخلص من بعض الأنواع المنافسة ، و من استعباد أنواع أخرى بالاستثناس ، ومن تعديل الأحوال الطبيعية والبيولوجية فى معظم أجزاء لباس من الكرة الأرضية » .

أى . . أن الإنسان قوة فعالة موجبة ، وليس بالقوة السالبة . .

كان يكفى أن نعود إلى هذه الأقوال لنرد على القائلين بحتمية التطور البشرى ، تلك الحتمية التى تقول بصراحة : إن الإنسان لا يملك التصرف ، ولا إرادة له فيها يحل به من أحداث !

ولكننا لن نكتفى بذلك . . وسنمضى خطوة أخرى فى الطريق .

التفسير المادى للتاريخ وحتمية التطور . . حقيقة ! لها رصيد من الواقع

البشرى فى تاريخه الطويل ! ولكنها حقيقة فى حالة واحدة . حين « يختار » الإنسان أن يلغى كيانه ، ويترك نفسه للأحداث ! حينئذ لا يكون قوة إيجابية ، ولا يكون له وزن ولا حساب . وحينئذ يكون كمية سالبة يتصرف فى أمره كل شىء ، ولا يتصرف هو فى شىء من الأشياء !

وذلك يحدث فى بعض الأحيان ! وقد حدث فى أوروبا فى القرنين الأخيرين فلم تقاوم موجة واحدة من موجات الفساد ، بل تركت نفسها للموج ، فغرق الرجل الأبيض فى نهاية المطاف !

ولكنه الغرور الأوروبى وحده هو الذى يفسر تاريخ البشر كله بما حدث فى أوروبا فى قرن ونصف قرن ، فى فترة متكسفة كل ما حدث فيها أن أوروبا خرجت آبهة من سلطان الكنيسة الجائر ، فأسلمت نفسها للشيطان ! وإلا فسنتقل إلى موقع آخر من الأرض ، وموقع آخر من التاريخ . سنتقل إلى صدر الإسلام .

أية قوة مادية . . أية تغيرات فى أساليب الإنتاج . . فى الجزيرة العربية أو فى العالم أجمع . . هى التى أدت - بصورة حتمية - إلى ظهور محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - يدعو إلى هذا الإسلام ويبشر بالدين الجديد ؟

يقولون إن العرب فى الجزيرة العربية كانوا قد استفدوا طور « القبيلة » وأخذوا يتطلعون لأن يكونوا أمة . . فكان ظهور محمد صلى الله عليه وسلم أمراً طبيعياً متمشياً مع طبيعة الأحداث ، ومستجيباً لحتمية التطور .

ومع ما فى هذا القول من التجوز فسنسلم به توفيراً للجدال !

من قبيلة إلى أمة . . معقول !

ولكن هل كل الإسلام دين « الأمة العربية » ! ؟

كيف وهو يقول - في مكة - قبل الذهاب إلى المدينة ، وقبل تأسيس الدولة ، وقبل اجتماع الأنصار ، وقبل تجميع القوى المادية والقدرة التنفيذية . . بل قبل أن يؤمن به أحد إلا بضعة نفر مشردين في الشعاب ، ومطاردين من الأهل والخلان ، هائمين بغير مستقر ولا حماية ولا أمل في الغد القريب فضلا عن الغد البعيد . . كيف وهو يقول في هذه الظروف كلها عن القرآن الكريم : « وما هو إلا ذكر للعالمين » في سورة « القلم » من أوائل ما نزل من القرآن الكريم . وفي سورة سبأ المكية ما هو أصرح في هذا المعنى . ذلك قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » . وكذلك آية الأعراف المكية : « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا » ؟

ثم هل كان الإسلام دين « الأمة العربية » ؟ نبي الإسلام يقول : « الناس سواسية كأسنان المشط . لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » ؟
أهى دعوة لتكوين أمة ، أم دعوة إلى « الإنسانية » عامة من أول خطوة في الطريق ؟!

فهل كذلك الحتمية التاريخية يا هواة التفسير المادى للتاريخ ؟ من القبيلة إلى الإنسانية قفزة في سنوات ؟!

وتتكون الأمم من القبائل . . فهل مجرد هذه الخطوة يعدل النظم الفكرية والعقيدية والاجتماعية والاقتصادية . . بدون تغير مادي ، ولا تحول في أساليب الإنتاج ؟ منطق البيئة لم يكن هو المنطق الذى أتى به الإسلام . . بل لقد قام الصراع طويلاً - جدا - بين منطق البيئة ومنطق الإسلام ، حتى تغلبت العقيدة الجديدة بما فيها من قوة ومن عناصر خير غلبة ، فقهرت منطق البيئة وأجلته من النفوس . .

كان منطق البيثة يحتقر المرأة ويضعها في مكانة تشبه مكانة السائمة والحيوان . توأد أحياناً وهي وليدة . وتستقبل بالابتئاس والغبط . وتذل وهي فتاة . و« تمتلك » وهي زوجة كما تمتلك الأشياء . ولم تكن المرأة ذاتها تسخط على هذا الوضع ، ولا كان هناك من يطلب لها وضعاً غيره من الرجال . لا في الجزيرة العربية ، ولا في أى مكان في الأرض .

وجاء الإسلام يقول : « فمن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى - وهو مؤمن - فلنحيينه حياة طيبة » « فاستجاب لهم ربهم : أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى : بعضكم من بعض » .

وجاء يقول : « عاشروهن بالمعروف » ويجعل لهذا المعروف قواعد وتشريعات وتوجيهات .

وجاء يعطيها - إلى جانب المساواة في الإنسانية ، والمساواة عند الله - حق الملك والتصرف : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون » « للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن » وهو حق لم تعطه فرنسا لنسائها إلا في القرن العشرين .

وكان منطق البيثة هو منطق الغلبة لصاحب القوة لا لصاحب الحق ، ولم يكن تحول العرب إلى أمة - بطريقة حتمية - ليغير هذا المنطق ، فكم من أمة يسود فيها هذا المنطق إلى هذه اللحظة في القرن العشرين !

فجاء الإسلام يعطى كل ذى حق حقه ، بإنسانيته المجردة ، لا بكونه صاحب قوة أو نفوذ وسلطان ، حتى ولو لم يكن مسلماً ، ما دام يعيش في المجتمع الإسلامى . وقد نزلت تسع آيات في سورة النساء لتبرىئ يهوديا اتهم

ظلمًا ، وتآمر على اتهامه رجال من المدينة أقوياء بعصبيتهم ولا ولى له ولا نصير^(١) .

وكان منطلق البيئة هو توقيف زعيم القبيلة - أو الملك حين تتكون الأمة - توقيفًا يجعل منه الهماً لا يسأل عما يفعل . وكان هذا هو منطلق العالم كله مع حكامه في ذلك الحين ، فإذا الإسلام يجعل في هذه الأمة من الوعي السياسى البالغ القمة ما يجعل فردًا من عامة المسلمين يقول لأشد الخلفاء مهابة في تاريخ الإسلام - عمر بن الخطاب - : « والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف ! ثم يجعل عمر لا يغضب لنفسه من هذه القولة الجريئة . بل يحمد الله !

وكان منطلق البيئة يجعل الكرم العربى الشهير قاصرًا على الحفاوة التى يسير بذكرها الركبان ، وتصلح للمفاخرة بين القبائل ، أما العطف على الفقير والمسكين ، العطف الذى ينبع من منبع إنسانى بحت ، ولا يهدف إلى شهوة ولا فخر ولا تظاهر فقد كان أمرًا نادرًا فى تلك البيئة قليل الحدوث ! فجاء الإسلام يلح إلحاحًا شديدًا جدًّا فى إعطاء المسكين « حقه » فى مال الله ، وإكرامه ، والعطف عليه ، ومواساته ، حتى ليجعل ذلك أمرًا للرسول ذاته صلى الله عليه وسلم ، وما كان فى حاجة قط إلى هذا الأمر : « فأما البيتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر » وإنما كان توجيه الأمر إليه صلى الله عليه وسلم للإشعار بأهميته وبأنه واجب القضاء .

وكان منطلق البيئة - ومنطلق العالم كله يومئذ - يجعل السادة سادة والعبد فى

(١) سورة النساء « ١٠٥ - ١١٣ » وما جاء فيها : (ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً) إشارة إلى ذلك اليهودى البرىء !

منزلة تقرب من منزلة الحيوان ، يهان ويعذب ويقتل بلا حساب .

وجاء الإسلام يزوج بنت عممة رسول الله - القرشية - من زيد . . من أحد الموالى ، وجاء يجعل هذا المولى قائدًا لجيش من جنوده أبو بكر وعمر ووزيرا الرسول وخليفته !

ويقول الرسول الكريم : « من قتل عبده قتلناه ، ومن جدد عبده جددناه» . . ولم يكن ذلك لأن أحدًا طالب لهم بهذه الكرامة . . ولم يكن كذلك لأن الوضع الاقتصادى أو علاقات الإنتاج أو أدوات الإنتاج تغيرت أدنى تغيير !

وكان منطق البيئـة يؤمن بالملكية الفردية المطلقة من كل قيد ، الخاضعة لغير قانون .

وجاء الإسلام ينظم هذه الملكية بنظام لم يشب العالم إلى شيء منه إلا في هذا العصر، بعد أن اكتوى بجحيم الإقطاع والرأسمالية وتجرح منها الحميم . جاء يقول إن المال مال الله والجماعة وكيلة عنه . والفرد موظف فيه ، يستحقه بأداء حقه وحسن القيام عليه . فإن سفه أو لم يؤد حقه عاد إلى الجماعة صاحبة الحق الأول فيه ، ثم ينص على طريقة توزيعه « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم» .

وكان منطق البيئـة وكان . . وكان . . فجاء الإسلام يلغى ذلك المنطق ويستبدل به منطقًا آخر بعيدًا كل البعد ، غريبًا كل الغرابة على تلك البيئـة وعلى كل البيئات يوم كان ، ولا يجعل كلامه مبادئ « مثالية » معلقة في الفضاء ، بل واقعًا محسوسًا يتمثل في بشر يدبون على الأرض وقلوبهم متجه إلى السماء !

فكيف حدث ذلك ؟

أية حتمية تاريخية وأى تفسير مادي يمكن أن يفسر هذه العجيبة في تاريخ الإنسان؟!

شئ واحد يمكن أن يفسر .

إن الإنسان حين يؤمن بالله إيماناً صحيحاً وتعمر قلبه عقيدة سليمة . .
يصنع هذه المعجزات !

الإنسان أكبر قوة على الأرض حين يؤمن بالله . إنه حيثئذ يصبح طاقة موجهة . يصبح القوة الفعالة المريدة على وجه الأرض - بإذن الله - لأنه خليفة الله .

والله يقول للناس : « وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه » .

فهو - سبحانه - سخرها للناس . وهي إذن مسخرة لهم بإذنه . مسخرة لهم . أى أنهم هم القوة الفعالة التى تملك التصرف . وليسوا هم الكمية السالبة التى يتصرف فى أمرها كل شئ ولا تتصرف هى فى شئ من الأشياء !

ذلك هو الوضع الحق للإنسان . ذلك هو مكانه اللائق . المكان اللائق بخليفة الله فى الأرض .

وحين يثوب الإنسان إلى رشده ويتعرف مكانه الحق ، لا يعود خاضعاً للمؤثرات يتأثر بها دائماً ولا يؤثر . وإنما يصبح قوة إيجابية تتفاعل - على الأقل مع القوى المادية ، إن لم نقل تتغلب عليها وتسخرها .

وليست القوى المادية وحدها هى التى يوجه الإسلام الإنسان إلى سلبيتها منه وإيجابيته بالنسبة إليها .

وإنها هي كذلك الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والروحية . . وكل نشاط البشرية .

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» .

هكذا شاءت إرادة الله ، كرمًا منه وفضلًا ، أن يكون البشر هم أدوات العمل في الأرض ، وهم كذلك أدوات التغيير . الإنسان هو الذى يعمل . والإنسان هو الذى ينتج . والإنسان الذى ينشئ النظم و يقيم الأوضاع . والإنسان كذلك هو الذى يغير الواقع . . والتغيير هو إرادة الله . ولن يعجز الله سبحانه أن يغير ما بالقوم دون أن يغيروا ما بأنفسهم . فالسماوات والأرض ومن فيهن ملكه . وهو القاهر فوق عباده . وهو المتصرف وحده فى الجميع بما يشاء وكيفما يشاء . . ولكنه هكذا شاء . . أن يكون الإنسان عضوًا إيجابيًا فى الحياة ، وأن يكون التغيير مرتبطًا بإرادة الإنسان ، مقضيًا عن طريقه ، نافذًا من خلاله ، ممتزجًا بكيانه كله من عمل وفكر وشعور .

أى إكرام أجل من هذا الإكرام ؟

ومع ذلك يخنس الإنسان ويرتكس ، ويضع نفسه مكان الحيوان والجماد ، ويترك نفسه للأحداث تسيره ولا يرسم هو طريق الأحداث .

كلا ! إنه يصنع ذلك حين لا يؤمن بالله ، ومن ثم لا يعرف حقيقة نفسه ولا يؤمن بها .

أما حين يؤمن بالله ويؤمن بنفسه فلن تلحقه حتمية التطور ، ولن يخضع للتفسير المادى للتاريخ ، ولا لأى تفسير غير التفسير الإنسانى الكامل ، الذى يضع الإنسان فى موقف الموجه الفاعل المرید .

ولو آمنت أوروبا بالله ، وآمنت بإنسانية الإنسان ، لما تركت الأحداث تسير

فيها على هذا النحو الذي سارت به ، وكان لها رأى آخر ووجهة أخرى ، ولوجدت في نفسها القدرة على أن تقف في طريق النكسة « الحتمية » التي أصابت أخلاقها وحلت مجتمعا ، ولما كانت الثورة الصناعية أو الحرب أو غيرها من الأحداث بقيادة على تفكيك أو صالها بتلك الصورة العنيفة التي جرّت عليها وعلى العالم الخراب .

* * *

ومهما يكن من أمر . . فقد كانت تلك هي القصة التي انتهت بانهيار الأخلاق والتقاليد . وتلك هي « الوقائع » التي تفسر على الأقل - وإن لم تكن تبرر - ذلك الانهيار .

أما نحن ؟ فما بالنا ؟ ماذا حدث في حياتنا من « وقائع » تبرر الانهيار الذي نعانيه أو تفسره على أقل تقدير ؟ ماذا غير العبودية التي اندست في نفوسنا للغرب المستعمر الذي جاء ليهدم ديننا وأخلاقنا وتقاليدنا ، ليستمتع هو بالسيادة والسلطان ؟

هل من سبب آخر حقيقي يؤدي لكل ما نحن فيه من رخاوة وانحلال وتميع وانحدار ؟

هل من سبب آخر . . فلنكن صرحاء .

فلنكن صرحاء!

فلنكن صرحاء!

فلنصاح أنفسنا بحقيقة موقفنا من الدين والأخلاق والتقاليد . . لماذا نتهرب من الواقع وندفن رؤوسنا في الرمال ؟ . . لماذا نضل أنفسنا ونتعلق بالأكاذيب!

أو . . لماذا نكذب عامدين ونضل الآخرين؟

فلنكن صرحاء!

* * *

هل هناك أسباب « موضوعية » للانحلال الخلقى الذى نمارسه اليوم . . أو . . إذا استخدمنا التعبير المقابل : هل هناك أسباب موضوعية « للتححرر » والانفلات من القيود؟

لقد انحلت أوروبا لأسباب كثيرة بينها من قبل . . وهى لا تبرر الانحلال، ولا تعطيه صفة الشرعية ، ولا تقلل من جريمة الهبوط الحيوانى الذى تمارسه أوروبا اليوم . ولكنها فقط « تفسر » لم حدث ذلك الانحلال .

فليأذا انحللنا نحن؟

ما هي « الوقائع » التي أدت بنا للانحلال ؟

هل كانت لنا كنيسة تطاردنا في يقظتنا ومنامنا بالإتاوات الثقيلة ، والخضوع المذل لرجال الدين ، وتحرم على أفكارنا أن تفكر في كروية الأرض ، أو مركز الإنسان في الكون ، أو العدالة الاجتماعية ، أو النظم السياسية ، أو نشغل بالعلوم العملية من طب وفلك وطبيعة وكيمياء ونبات وحيوان ، أو نسعى في فجاج الأرض طلباً للرزق ؟

هل كانت لنا أفكار دينية ترفض فكرة التطور في الكون والحياة والإنسان . . فلما صدمتنا فكرة التطور العلمية ألقينا بالدين جانباً وانطلقنا «نتطور» مع تطور العلم ؟

هل قامت في تاريخنا الديني كله عداوة بين الدين والعلم كالتى قامت في أوروبا ، أو قام النفور في وجداننا الباطني بين الإنسان والله ، كما قام في الوجدان الأوروبي في أسطورة « برومتيوس » سارق النار ؟^(١) .

وإذا آمنت أوروبا لأى سبب من الأسباب بحيوانية الإنسان فهل يستطيع الشرق بروحانيته الأصيلة وعقائده العريقة وأصالته في ميدان الإنسانية ، أصالة ترجع إلى عشرات الألوف من السنين ، منذ أن أشرقت عليه الحنيفية الأولى ، دين إبراهيم . . هل يستطيع الشرق في يوم من الأيام أن يؤمن حقاً - في أى فترة من عمره - بحيوانية الإنسان ؟

وإذا كانت أوروبا قد انتقلت من الفلسفة المثالية المحلقة في الفضاء أو

(١) هي أسطورة يونانية قديمة تمثل الصراع بين البشر والآلهة على النار المقدسة أو « المعرفة » . البشر سرقوا النار المقدسة فعاقبتهم الآلهة على ذلك عقاباً بلياً . وعلى الرغم من أنها أسطورة وثنية فقد تغلفت في اللاشعور الأوروبي تغلغلاً عميقاً وكيفت شعورهم الحقيقي بالله ، فأصبحت علاقة نفور وصدام لا علاقة حب ومودة .

الدائرة في الخواء ، إلى فلسفة مادية بحثة لا تؤمن إلا بما تدرکه الحواس ، كرد فعل منطقی مع الأحداث القائمة هناك ، كرد فعل للأوضاع الأرضية الفاسدة التي تركتها الفلسفة المثالية تتعفن وتتن ويعج فيها الدود ، وهى فى برجها العاجى تبحث فى ما وراء المادة وما وراء الطبيعة . . فهل حدث فى التاريخ الإسلامى ذلك التقابل العدائى بين المثلئ والمادى ، بين الروحى والجسمى ، بين المنظور وغير المنظور ؟ أم امتزج هذان العنصران فى الفكرة الإسلامیة منذ البداية ، فعاش الناس فى الأرض وقلوبهم متجهة إلى السماء ، يعملون ويجاهدون ويعمرون ويتعلمون ويستنبطون ويأكلون ويتزوجون ويقضون كل مطالب الأرض فى ثبات وتمكن ، وقلوبهم فى الوقت ذاته معلقة بالله متطلعة إلى رضاه ، يعملون حساب الآخرة ولا ينسون نصيبهم من الأرض ؟

هل حدث فى حياتنا أن قامت المصانع تكايد العمال الثائرين على الظلم بتشغيل النساء بدلا منهم ، ثم أعطت النساء نصف أجور الرجال كما حدث فى أوروبا ، فقامت المرأة تطالب بالمساواة فى الأجور ؟ وهل حدث فى تاريخنا كله أن أعطينا المرأة - لأنها امرأة - نصف ما تستحقه من أجر على الكدح والعمل فى المصنع أو المتجر أو الحقول^(١) ؟ هل حدث فى تاريخنا القديم أو الحديث أن أعطينا المدرسات مثلا راتبًا أقل من راتب المدرسين كما تصنع انجلترا إلى هذه اللحظة ، بحجة أن المرأة تأخذ إجازة حمل وولادة وإرضاع بينما الرجل لا يأخذ مثل هذه الاجازة ؟ وهل وقفت مثل هذه الاعتبارات الخسيسة فى وجه الاعتبارات الإنسانية الخالصة التى يفيض بها حس الشرف دائما فى مثل هذه الشئون ؟

(١) تأخذ المرأة نصف نصيب الرجل فى الميراث فقط ، وهو مال لم تعب فيه المرأة . وحكمة التوزيع فيه أن الرجل يكلف من هذا الميراث بالإنفاق على أسرة ولا تكلف المرأة بذلك . أما الأجر على العمل فلا علاقة له بهذه القاعدة الخاصة بالميراث وحده .

هل حدثت عندنا حرب مدمرة أفنت الملايين من الشبان . ثم قام ديننا
بيمنع زواج الأحياء من الرجال بأكثر من واحدة ، فلم تجد الفتيات نصيبهن
النظيف من الحماية والرعاية والضرورة الجنسية ، ففسدن واقعات تحت هذه
الضرورة؟

هل حدث عندنا انتقال مفاجئ من الزراعة إلى الصناعة ، أخذ العمال
أخذًا من الريف إلى المدينة دون أن يترك لهم فرصة التروى ونقل الأسر واستقرار
الأوضاع ، فنشأ من ذلك فساد الشبان في المدينة وفساد الفتيات ؟

أم ماذا ؟!

ما الذى حدث من ذلك كله في تاريخنا الطويل لكى يؤدى تأدية «منطقية»
إلى التفكك والانحلال ؟

هل حدث شيء ؟ هل حدث شيء غير الاستعمار الأوروبى للشرق ..
الاستعمار الذى لم يستعمر الأرض بجنوده فحسب . وإنما استعمر كذلك
القلوب والأرواح ، والمشاعر والأفكار ؟

فلنكن صرحاء .. ولنقل إننا نقلد الغرب المستعمر تقليد العيد أو تقليد
القروء .

* * *

هل لدينا - نحن الشعب ، والكتاب والمفكرين - فكرة واضحة عن
المجتمع الذى نريده ؟ أفكاره ومشاعره وأخلاقه وتقاليده ؟ هل لدينا فكرة
واضحة عن أى التقاليد ينبغى أن يبقى وأبها ينبغى أن يزول .. ؟

هل لدينا فكرة عن الصورة التى نريد عليها شبابنا وفتياتنا ؟ إلى أى مدى
يذهبون فى «تحررهم» وأى ضابط يمسكهم ؟ أو لا ضوابط على الإطلاق ؟ ..

هل تذهب الفتاة بكل مذهب ؟ هل تتخذ لها صديقاً ؟ هل «تخطر» الأسرة بذلك الصديق ؟ أم تتخذ ذلك في السر ؟ وهل تغضب الأسرة حين تعلم ؟ أم تتغاضى كأنها لا تعرف ؟ أم تنبسط أساريها وترحب بالصديق ؟

هل تخرج الفتاة مع خطيبها منفردين إلى السينما والمسرح والحديقة الخلوية . أو حيث لا يعلم أحد ؟ أو يكون معها واحد من الأسرة ؟ وما مهمة هذا الواحد على وجه التحديد ؟

هل تخرج بالفيستان الذى يروقها هى ؟ تختار قبائش بنفسها وتختار تفصيله كما تشاء ، عارية الصدر أو عارية الظهر أو عارية السيقان ؟ أم الأسرة هى التى تشرف أم هى التى تختار ؟

وهل تسأل وهى خارجة : إلى أين تذهب ؟ أم ذلك من خصوصياتها التى لا يجوز للأسرة التدخل فيها ؟ وهل تراقب عن بعد أو عن كثب أم يترك لها القيادة؟

وهل تسأل إذا عادت متأخرة : أين كانت ؟ أم ذلك حقها وهى حرة فيه ؟ وهل إذا قالت : كنت أذاكر مع زميلتى ، يؤخذ ذلك قضية مسلمة أم يناقش ؟ وبأى أسلوب يكون النقاش ؟ بالمدارة والتحايل ؟ أم بالتفاهم الصريح ؟ أم بالتهديد بسلطة الأسرة وسلطة العقوبة ؟

وإلى أى مدى تتعلم - إذا كانت الظروف الاقتصادية لا تقف فى الطريق - أى نوع من التعليم ؟

وما الهدف من التعليم ؟ الوظيفة لمجرد الوظيفة ؟ أم الوظيفة للحصول على زوج ؟ أم الوظيفة للشعور بالحرية؟

وفى الجانب الآخر : هل يذهب الفتى كل مذهب ؟ هل يتخذ له صديقة

يقضى معها مطالب الجنس ، كلها أو بعضها حسب التساهيل ؟ وهل يكون ذلك علنا أمام الأسرة وأمام الجميع ؟ أم يكون خلسة في السر ؟ وما موقف الأسرة حين تعرف ؟ وأي نوع يتلقاه عندئذ من التوجيه ؟ أو لا توجيه على الإطلاق؟

وما موقف الفتى في الأسرة من أبيه ؟ هل يحترمه بمعنى إطاعة أوامره ، أم يحترمه على أساس « الزمالة » المطلقة في كل أمر ؟ أم لا يحترمه ؟ أم يكون موقفه منه موقف الحياد لا إهانة ولا إكرام ؟

وهل يخاطب الفتى لنفسه أم يخاطب بالوساطة ؟

ومن يتزوج ؟ يتزوج فتاة عرفها في الطريق أو في السينما أو في المنتزه ؟ أم فتاة تزامله في العمل أو تزامله في الدراسة ؟ أم فتاة لا يعرفها على الإطلاق ؟

وما شروطه في الزوجة ؟ وكيف يعرف أنها تشتمل على شروطه ؟ هل يصاحبها ويصادقها ويقضى معها ما يقضى فإذا ارتضاها تقدم لخطبتها ؟ أم يصاحبها فقط ، مصاحبه « بريئة » ؟ وما مدى البراءة ؟ هل القبلة والضممة داخلية في حيز البراءة أم في حيز الفساد ؟ وما موقفه حين يعرف أنها - قبل أن تتخصص له في الصداقة - كانت تصادق هذا وتصادق ذاك ، وتقضى معه ما تقضى الآن معه ؟ هل يأخذ ذلك على أنه الأمر الواقع ، أم يخفى رأسه في الرمال ، أم يفعل ويثور ؟ وكيف يختبر « حبها » له ؟ هل يعتبرها محبة حين تمنحه نفسها أم حين تمتنع عليه ؟ وما مدى مراودته لها وهو يعزم أن تكون له زوجة ؟ وما رأيه فيها حين تستجيب ؟

وبعد أن يتزوج ؟ ما الشأن في القدامى من الأصدقاء والصديقات ؟ هل يمتنع عن صديقاته ويمنعها عن أصدقائها ؟ أم يمتنع وهو لا يمتنع ؟ أو يلتقيان بهم - معاً - في المجتمعات ؟

وهل تستقبل أصدقاء زوجها في المنزل؟ تستقبلهم في حضرته وغيبته؟ أم في حضرته فقط؟ وما الضمان؟

هذا ومثات من أمثاله وألوف . . هل لدينا - نحن الشعب والكتاب والمفكرين - فكرة واضحة عنه وهدف مرسوم؟ أم نترك الأمر « بالبركة » وحسب ما تؤدي بها الظروف؟

فلنكن صرحاء . . . ولنقل إننا لم نتخذ بعد فكرة واضحة ، وإننا نعيش بلا هدف مرسوم .

* * *

هل نحن شعب محافظ؟ أم نحن شعب متحرر؟ أم ليس هذا ولا ذاك؟
هل هناك قطاع واحد في المجتمع - أى قطاع - له تقاليد واضحة وصورة محددة؟ الريف أو المدينة . العامل أو الموظف . الموظف الصغير أو الموظف الكبير . الفتاة المتعلمة أو الفتاة الجاهلة . الموظفة أو غير الموظفة . المتزوجة أو العزباء . المتعلم في « أوروبا » أو المتعلم فى مصر . المثقف ثقافة «غربية» أو ثقافة شرقية؟

هل لأى قطاع من هؤلاء صورة واحدة تميزه بطابع معين؟
أم القطاع الواحد فيه من كل صنف : المعتدل والمتزمت والمتحلل من القيود؟

ومن الناحية الأخرى : إذا أخذنا أى نوع من التقاليد : التزمت أو الاعتدال أو التحلل ، فهل يشمل قطاعا اجتماعيًا معينًا؟ أم يتناثر فى قطاعات المجتمع على غير اهتداء؟

إذا أخذنا مثلا خروج الفتاة وحدها بلا رقابة . . فهل يحدث ذلك بصفة
غالبية في قطاع معين من قطاعات المجتمع ؟ في « المثقفين » مثلا ؟ أو في سكان
العاصمة ؟ أو في الأسر التي تعلم فتياتها في الجامعة ؟ أو في أسر « الذوات » ؟
أو في محيط العمال . . ؟

أم نجد هذا التقليد في كل طبقة وفي كل فصيلة وفي كل قطاع ؟

وإذا أخذنا الفتاة المحافظة التي لا تكلم الأعراب ولا تختلط بالرجال فهل
نجدها بصفة غالبية في « بنت البلد » ؟ أو الأسر ذات الثقافة الدينية ؟ أو في
« الطبقة المتوسطة » أو أى قطاع من الناس ؟ أم نجدها متناثرة هنا وهناك على
غير أساس مفهوم ؟

وإذا أخذنا الأب الذى يحافظ على بناته . . أو الأب الذى يعرضهن في
السوق . . أو الأب الذى لا دخل له فى شىء . . فهل نجده فى قطاع معين ،
أم نجده موزعاً بلا نظام ؟

فلنكن صرحاء . . ولنقل إننا فى هذا الأمر لسنا « شعباً » وإنما حالات
فردية متناثرة لا تتكون منها وحدة ولا طابع مميز ولا اتجاه مفهوم .

* * *

الفتاة التى تذهب إلى البحر عارية إلا من المايوه ، تكشف فى حركاتها
المتقصعة كل ما استتر وتثير كل ما يمكن أن يثور . . تقول إنها تذهب
للرياضة ! « يا ناس ! » هل تصل بكم القسوة أو الأنانية إلى حد حرمانها من
حقها الطبيعى فى الرياضة ؟ هل البحر لكم أنتم وحدكم أيها الرجال ؟ هل
خلقت الطبيعة لاستمتاع الرجل وحده ؟ وهل الرياضة فى ذاتها حرام أيها
الناس ؟

كلا ! من حقها أن تمارس الرياضة . من حقها أن تذهب إلى البحر . من حقها أن تسبح فيه . . عارية إلا من المايوه . وتأخذ حمام شمس بعد ذلك على الرمال .

أليس هذا مقصدها ؟ أم شيء آخر ؟

ستتيح لها هذه الرياضة ، وكل رياضة . .

سنجعل حمامًا خاصًا للرجال ، وحمامًا خاصًا للسيدات .

الله ! ماذا جرى ؟ ولماذا تثور هذه الفتاة ؟ وتثور معها ألف فتاة ؟

ألم تكن تطلب الرياضة ، فأتممتها لها الرياضة ؟

فلنكن صرحاء . . إنها لا تريد الرياضة في ذاتها ، أو لا تريد الرياضة الخالصة ، إنها تريد الاستعراض ، والتلذذ بالاستعراض ، وإثارة الشهوات في الشباب .

* * *

الفتاة التي تلبس فستانًا عارى الصدر عارى الإبطين « جابونيز » وتسير في الطريق أو تجلس في السيارة أو تجلس في « الكازينو » وسط الرجال والشبان . . تقول إنها تمارس « حريتها » في انتقاء ما تريد من الملابس . إنها فتاة متحررة ، تحقق كيائها المتحرر . ما لكم بها أيها الناس ؟ من أنتم بالنسبة إليها ؟ ما دخلكم في شئونها ؟ ما علاقتكم بها وما وصايتكم عليها ؟ إنها حرة في نفسها تصنع بها ما تشاء . . هل تحجرون على حرية المرأة ؟ هل تلغون كيائها المستقل ؟ هل تستعبدونها ؟ هل تجعلونها تابعة للرجل تلبس ما يفرضه عليها ولا تختار لنفسه ما تريد ؟

كلا . لا نستعيد المرأة ولا نلحقها بالرجل تابعة له .

لها كيانها « المتحرر » .

ولكن . . هل الحرية حقًا هي مقصد الفتاة ؟ هل هي « قضية » نفسية وروحية وفكرية تؤمن بها وتحققها ؟

فلننظر . . .

هذا الشاب الذى أثار صدرها العارى نزوة الحيوان فيه . . الذى يجملق بالمسعود فى ما بدا وما استتر . . الذى يلتهمها التهاما بعينيه المنهومتين . . أو ليست تراه ؟ وما رأيها فيه ؟ وما رأيها فى نظراته وإن أبدت فى الظاهر الاستياء ؟ أما عملت حسابه ؟ أما عملت حساب أن صدرها العارى وحركتها المثيرة ونظرتها الخليعة تثير فيه كوامن الحيوان ؟ أو ليست متأكدة من ذلك تأكد اليقين ، منذ اللحظة التى اختارت فيها الفستان ، ومنذ اللحظة التى لبسته فيها عند الخروج ؟ ما رأيها فيه ؟ هل لبست الفستان « لنفسها » ؟ أم لهذا الفتى المنهوم - أى فتى منهوم ، تقع عيناه على هذا المنظر المثير ؟ ولماذا ؟ لماذا عملت حسابه وهى تلبس ، وعملت حسابه وهى تجلس قبالتها تنتظر اللحظة التى تقع عيناه عليها ؟ هل عملت حسابه لأنها متحررة ؟ أم لأنها مستعبدة من الداخل لدفعة الجنس ، مستعبدة للحيوان الذى فيها والحيوان الذى فيه ؟

فلنكن صرحاء . . إنها لا تمارس « التحرر » وإنما تمارس العبودية الكاملة لدفعة الحيوان .

* * *

الصحفى الذى يشغل الفتيات فى صحيفته . . يقول : إنه يعمل على « تحرير » المرأة . يساعدها فى أن « تفتح » كل ميدان للعمل وتثبت كفايتها

وتحقق شخصيتها . يقول إن المرأة أثبتت أنها أكفأ من الرجل وأقدر على القيام بمهامه يقول : إنها أصبر على العمل وأكثر إخلاصاً له . . يقول ويقول . .

أو حقاً يعمل على تحرير المرأة وإثبات كفايتها ؟

أم يتخذها «مصيدة» للعمل الصحفى الذى يؤديه ؟ يرسلها لاقتناص الأخبار وهو يعلم علم اليقين أن حركة مائة من هنا وبسمة مثيرة من هناك تفتح مغاليق الأفواه وتستخرج مكنون الصدور . أو يبقياها فى المكاتب فيتخلق حولها الشبان « ويخلصوا » فى العمل للصحيفة ليستمتعوا بصحبة الفتاة ؟

أيدرك ذلك صاحب الجريدة الذى يشغل الفتيات أم تراه غافلاً عن الإدراك ؟

فلنكن صرحاء . . إنها تجارة كتجارة الرقيق الأبيض تتم وراء الجدران وخارج الجدران .

* * *

الكتاب الذين يدعون إلى « التحرر » . . والشبان الذين يتحمسون للكتاب .

أخلصون هم فى دعوة التحرير ؟ هل أوجعهم حقاً تخلف المرأة وعبوديتها ؟ هل سالت ضمائرهم رقة على المعذبات فى الأرض وفاضت أعينهم بالدموع ؟ هل يريدون حقاً أن تشعر المرأة بشخصيتها وتحقق كيانها ؟

أيريد كل منهم حقاً أن تكون له زوجة «متحررة» من أولئك اللاتي يرسمهن فى خياله وهو يدعو . . زوجة تناقش الرجل الحساب وتشعره أنها

سَوَّيْتُهُ ، لا يبرم أمراً إلا إذا رضيت عنه . . زوجة تخرج حين تريد وتعود حين تريد ، وتختلط بالرجال في كل صعيد؟

أم يضيق بهذه الزوجة ويلعن اليوم الذي «تحررت» فيه . . ومع ذلك يدعو . .

أخلص هو في الدعاء؟ أم وراءه «دوافع»؟

أريد تحرير المرأة لتتحرر حقاً . . أم لتصبح سهلة التناول في المتجر والمصنع والمكتب والطريق؟ للحصول على شهوات ميسرة لا تقف في طريقها العوائق ولا تحول دونها «التقاليد»؟

فلنكن صرحاء . . إنها شهوة الحصول على المرأة وليست الرغبة في التحرير.

* * *

الفتاة التي تذهب إلى الجامعة وقد ترينت كالراقصة وتخلعت كال . . .

تقول : إنها تريد العلم . .

كذلك؟! . .

العلم يتطلب هذه الملابس؟ العلم يتطلب هذه الحركات؟

العلم يتطلب الضحكة المثيرة والغمزة المشحونة بالإغراء؟

العلم يتطلب الأظافر المصبوغة وأحمر الشفاه؟

العلم يتطلب الجلوس مع الطلبة في «البوفيه» فيما بين المحاضرات أو «تزيوياً» من المحاضرات؟

العلم يتطلب المواعيد الخلوية بحجة الاستذكار . . ولا استذكار ؟
العلم يتطلب معاكسة الأستاذ ولفت نظر المعيد ؟
العلم يتطلب تحويل الجامعة إلى مرقص ومسرح وكرنفال ؟
وهل هذه الفتاة حين خرجت من منزلها كان في بالها العلم ؟ أم ذهبت إلى
الجامعة «لتصطاد» ؟
فلنكن صرحاء . . .

* * *

الجامعات اليوم صارت أربعمًا . . منها اثنتان في القاهرة^(١).
وحيث طلبت بعض الفتيات « المتأخرات » اللواتي يذهبن إلى الجامعة
للعلم ، وتغشى نفوسهن من القذارة الروحية والفكرية التي يمارسها الطلبة
والطالبات الذين لا هم لهم غير الصيد . . صيد الحيوان . . حين طلبت
هؤلاء الفتيات أن تخصص لهن جامعة ، يتعلمن فيها كل العلوم بمعزل عن
الفساد، ثارت نائرة الصحافة « التحريرية » . . وقال قائلها : من أين نجىء
بالمعامل ومن أين نجىء بالأدوات ؟ بل من أين نجىء بالأساتذة والمدرسين
ونحن في أزمة من كل هؤلاء ؟

اليوم . . لو جمعنا فتيات الجامعات الأربع ؟ ألا يملأن جامعة كاملة بل
أكثر ؟ بنفس المعامل ونفس الأدوات ، ونفس الأساتذة والمدرسين بلا زيادة
ولا تغيير ؟

فلنكن صرحاء . . إنها ليست الإمكانيات . ولكنها الرغبة المجنونة في
الاختلاط .

* * *

(١) كان ذلك في منتصف الستينيات أما الآن فقد بلغ عدد الجامعات أربع عشرة جامعة .

الأخ الذى «يسرّح» أخته لتحصل له على صديقات . .

ألا يكمل الدائرة فى خياله ويعلم ما لا بد أن يكون ؟

أليس يعلم أنه يعطيها القدوة وهو يستخدمها كجلاب الرقيق تخضر له الفتيات ؟ أليس يعلم أنها تعرف فيم يريد منها فتاة فى إثر فتاة ؟ أليس يعلم أنها تدرك أنها تقضى له شهواته عن هذا الطريق ؟ أليس يعلم إذن أنه يعطيها القدوة وأنها لا بد أن تبحث لها عن أصدقاء ، إما من أصدقائه هو أو من أى طريق ؟

ما موقفه ؟

أفرضى فى سبيل إشباع شهوته الهابطة أن يعلم أخته الفساد ويدفع بها إلى الطريق ؟

أم تراه يرحب بذلك . لعلها فى أثناء الصيد أن تقع على صيد ثمين ؟
فلنكن صرحاء . . إنها قدارة مغيبة يستنكف منها الحيوان .

* * *

الأب الذى ترجع له بنته فى ساعة متأخرة من الليل . . ويسألها ونجيب . .
كانت تستذكر مع إحدى الزميلات .

هل يعلم ؟ هل يتحدث ؟

هل يعلم أن الشاب الذى كانت معه أوصلها إلى باب البيت وانتظرها فى الصباح ؟

وما موقفه حين يعلم ؟

وحين يتحرك قلبه من الداخل ثم ينجح ويسكت . . ويتظاهر بالرضا
هل يظن أنه لا تزال فيه ذرة من الرجولة ؟
أم تراه يبتسم في سره، ويقول : « شاطرة البنت » ! . . متى يتقدم ابن
الحلال ؟

فلنكن صرحاء . . إنها قدارة مغيثة يستنكف منها الحيوان .

* * *

ما حدود الفضيلة ؟

حين تخرج البنت عارية الصدر ملطخة الوجه متقصعة الحركات . .
يتصايح دعاة « التحرر » : ماذا تريدون أيها المتمزتون ! هل الفضيلة هي
الملابس ؟ هل هي تقاس بسطح الجلد ؟ الستى والقيراط ؟ إنها فتاة بريئة لا
تقصد شيئاً . إنها فتاة فاضلة .

وحين تصادق فتى تذهب معه إلى السينما أو نزهة خلوية يتصايح الدعاة
قائلين : و « ماله » ؟ ماذا حدث ؟ نزهة خلوية بريئة . . ألا يهجس في
نفوسكم إلا خاطر السوء ؟ يا ناس ! أحسنوا الظن . ليس السوء إلا في خيالكم
المليء بالثرهات والظلمات والظنون . الشاب برىء يريد أن يستمتع متعة
بريئة .

وحين يضمها ويقبلها . . ويعبث بعض العبث المحظور . . يتصايح
الدعاة : هل حدث شيء ؟ هل مست الفضيلة ؟ هل نقصت الفتاة شيئاً ؟
هل انهدت الدنيا و « تطربقت » ؟ يا ناس ! العالم بخير ! دعوا الأمور تسير .
شيء من الصداقة البريئة . . مداعبة لا تتجاوز الحدود . .

وحين تقع الواقعة يصرخ الدعاة : إلى متى تظلون متأخرين رجعيين في تفكيركم ونظرتكم للأمر ؟ هل الفضيلة شيء مادي حسي ؟! الفضيلة في الداخل ! في النفس ! في المشاعر ! إنها فتاة ولها الحب ، وسيطر على مشاعرها « فضحت » في سبيله بكل شيء . إنها فتاة نبيلة المشاعر . ما دامت لا تتبع جسدها لكل راغب . ما دامت مخلصة « لحبها » وفيه لفتاها . إنها فاضلة !

ثم تتبع جسدها لكل راغب وتنزل إلى السوق . .

ومع ذلك يجد بعض الكتاب في نفسه مزيداً من الوقاحة فيسميها البغي الفاضلة ! ويدافع عن الفضيلة المتمثلة في البغاء .

فلنكن صرحاء . . إننا تجار رقيق نريد أن ننشر البغاء!

* * *

الكاتب الذي يكتب في صحيفته هذه القصة :

امرأة أرسلت إليه « تستشير » . .

كنت متعودة إذا حدث بيني وبين زوجي سوء تفاهم أن أدخل غرفتي وأقفل الباب على نفسي . . فيأتي زوجي فينقر على الباب ، ويدخل ، فأصفح عنه ويتبهي سوء التفاهم .

وفي آخر مرة حدث سوء تفاهم شديد . وغضب زوجي غضباً عنيفاً فقمتم ودخلت غرفتي وانتظرت . . فلم ينقر زوجي على الباب كالمعتاد ولم يأت ليستسمحني . اغتظت . أقفلت الباب من الداخل بالمفتاح ، وقلت إذا جاء « أظعه » على الباب ولا أغفر له بسهولة ، ولكنه لم يحضر . زاد غيظي . بقيت في غرفتي طول اليوم . لم يحضر . فتحت الباب ، فوجدت زوجي قد غادر المنزل . زاد غيظي . . كان لي جار يعاكسني وكنت أغضى عنه . ولكني

في هذا اليوم شجعته . فقط لأعطي زوجي . لم يعرني زوجي اهتماماً . زاد غيظي . فزدت في تشجيع جاري . دعوته إلى شقتي . لم يعرني زوجي اهتماماً . جن جنوني . قررت أن أخون زوجي مع جاري . خنته بالفعل . . ما رأيك ؟
الكاتب الذي يكتب هذه القصة . .

أى شيء يقصد ؟

أريد حقاً عرض المشكلة ؟ أريد حقاً أن يصل إلى عبرة ؟

أم يعلم جيداً ما يؤدي إليه نشر القصة في نفوس القراء ، أيا يكن التعليق الذي علق عليها به ؟

وما وظيفته ؟ ما وظيفته في المجتمع ؟ أى دور يؤديه ؟

فلنكن صرحاء . . إنه يعلم جيداً أن هدفاً آخر يتحقق من نشر القصة ، هو إثارة مشاعر الجنس ، وتوهين عروة الأخلاق ، وتمزيق برقع الحياء بنشر هذه الفضائح البشعة على أنها «واقع» . . واقع تبجح به صاحبه فتحكيه . إن كانت له صاحبة على الإطلاق !

الاختلاط . . البريء . . .

أين يوجد ؟ ما حدوده بالضبط ؟ وفي أى ركن من أركان الأرض يحصل عليه الإنسان ؟ .

هل هناك - في أى مكان على الأرض - اختلاط اسمه بريء ؟

ودعك من سورة المشاعر وتلمظ الشهوات داخل النفوس . سنسمى الاختلاط بريئاً ما دام لا يحدث فيه التصاق الجسد والتنفيذ العملي لما يدور في الصدور . فأين يحدث هذا الاختلاط البريء ؟ في الحفلات التي تقيمها

المدارس بإشراف المشرفين ؟ والبيوت بإشراف الآباء؟

نعم . حقا . إنها تكون بريئة هذه الحفلات . فالمشرفون واقفون والآباء ينظرون ، ولا يمكن أن تتم إلا نظرة بريئة وحديث مكشوف .

وينتهى الحفل . . ويخرج الأولاد والبنات . .

فهل تنتهى الحكاية عند هذا الحد المحدود ؟

منذا الذى يقول ؟

منذا الذى يقول : إن مقابلات خاصة لا تحدث بعد ذلك ، يتم فيها كل شىء غير برىء ؟

ما هذا الجنون الجنسى فى أمريكا ، والإباحية الفاضحة فى أوروبا ، والانحلال الذى ليس بعده انحلال ؟

هل « تغذى » الفتيان بالاختلاط البرىء وشبعوا من الجنس ، فحفوا عن الجريمة؟

وما قيمة الاختلاط البرىء إذن إن كان لا يؤدي غاية ولا يمنع جريمة ؟ ما قيمته فى واقع الحياة ؟

لقد زعمت أوروبا فى القرن الفائت أنها اهتدت لهذا الاختلاط البرىء كحل لمشكلة الجنس المكبوت . ثم رأت بنفسها النتائج ! وعرفت أنه لا يظل على براءته قيد خطوات ! ومن ثم لم يعد دعواتهم يكتبون عن « الاختلاط البرىء » . كانوا صرحاء مع أنفسهم . قالوا : إنهم يريدون الاختلاط وليكن من نتائجه بعدما يكون !

ونحن ما زلنا نردد الاسطوانة القديمة . . الاسطوانة التى بليت من سوء الاستعمال !

فلنكن صرحاء . . ونطلب الاختلاط في صراحة ، بكل ما يترتب عليه من نتائج وما ينشأ عنه من آثار .

* * *

هذه العيون الزائغة التى تتبع كل فتاة عابرة تتفحصها من قمة رأسها إلى إخص قدميها ، وتتحسس بالنظرة كل مكن فى جسد وكل موضع مستور .
هذه النفوس الشاردة التى تحوم فى بخار الجنس الموبوء لا تكاد تفيق من أحلامه المسعورة ، ، تتلمظ على كل منظر مثير ، وتتعلق بكل خيال دنس منهم . .

هذه القطعان من الشباب التى تطارد كل فتاة كالكلاب المسعورة .

هل هذه مخلوقات آدمية ؟

هل هى نفوس يرجى منها خير؟

هل هى سواعد تقيم بناء أمة ؟

فلنكن صرحاء . .

* * *

هذه الفتاة المتميعة الرقيقة المنحلة التى تملأ الشوارع . . التى تتكسر فى مشيتها وتتخلع فى حركتها وتتبايع فى لفظتها وترقق حتى لا تستطيع أن تنطق بالحروف . . تسورى (تصورى) . . مش تايقه (طايقه) الفستان السوف (الصوف) من كتر الحر ! (فى يناير !) . . .

هذه الفتاة التى تستلفت بعينيها الجاهرتين وحركات جسدها المتلوى وثنيات رداها المتموج أحط ما يمكن أن يثور فى الشباب من خواطر الجنس . .
هذه الفتاة التى تبلغ بها الوقاحة أن تبدأ هى بالغزل ، وتخرج من بينها لتعكس الشبان .

هل هذه مخلوقة آدمية ؟
هل هى تصلح أن تكون أما ومربية أبناء ؟
هل هى تصلح أن تنشئ جيلا يكافح ويصبر على الكفاح ؟
فلنكن صرحاء ..

* * *

فلنكن صرحاء ..
فلنواجه المشكلة فى حقيقتها ، بلا عنوانات خادعة ولا أضرابيل .
فلنقل فى صراحة وفى شجاعة ما نريد أن نقول . .
فلنقل : إننا لا نريد الدين ولا نريد الأخلاق ولا نريد التقاليد .
فلنقل : إننا نريد تخريج جيل من الأناسى يعيشون كالحيوآن .
فلنقل : إننا نكره الترفع ونكره الصعود .
فلنقل . . . ولا نخف . . ما دمنا مؤمنين بما نقول !
أما الاستتار وراء التحرر والتقدم والانطلاق . . فكل ذلك ستار زائف لا
يلبث أن يزول !
ولا جرم يكره هؤلاء كلهم الإسلام . . فلن يمرؤ أحد منهم على الظهور حين
نكون مسلمين !

* * *

حين تكون مسلمين

حين نكون مسلمين تتغير ولا شك صورة المجتمع كله ، ويتخذ صورة جديدة .

وهنا يفرح أناس ، وتوجس من الخوف قلوب !

كيف تكون ياترى صورة المجتمع المسلم ؟

السيف مصلت على الرقاب ، والجلاد منهمك في العمل ليل نهار يجلد المخالفين !

المرأة في « الحریم » لا تخرج ولا تتعلم ولا توظف في عمل ولا تشارك في نشاط !

اللحمى تملأ الشوارع والعمائم تملأ الدواوين !

اختفى المرح من الوجوه والقلوب ، واستبدلت به تقطية صارمة لا تبسم ولا تلين !

الرجال في المساجد والنساء في البيوت ، وقد خيم السكون والصمود والجمود .

تلك صورة المجتمع المسلم في أذهان الكثيرين !

وحق لهم أن يرتجفوا من الفزع ويكرهوا هذا الدين !

* * *

وآخرون قد لا يسوء ظنهم إلى هذا الحد ، ومع ذلك يوجسون ، ويكرهون هذا الدين .

الشباب المنطلق مع الشهوة المتفلت من القيد .

الشباب الذى مرد على المتاع الدنس . الذى يعيش ليله ونهاره مسلوب القلب . يملأ خياله الجنس ، وتنفخ فى دمه الشهوة ، ويتفزز فى نهم مسعور . الشاب الذى توقظ كوامنه الصورة العارية فى المجلة ، والصورة العارية فى السينما ، والجسد العريان على المسرح ، والفتاة العريانة فى الشارع ، والأغنية العريانة فى المدياع ، والفكرة العريانة فى الكتاب ، والقصة العريانة «لكبار» المؤلفين . . فينطلق فى دمه شواظ مجنون .

الفتاة التى توقظ كوامنها وصفات الجنس فى كل مجلة تقرؤها وفى كل صحيفة ، ومناظر الاستمتاع الفاجر فى المسرح والسينما ، وتملاً خيالها الصور والألفاظ الخليعة فتشيع فيها الشوق الملهوف والسعار المجنون .

هذا الشباب - بهذا النهم المتوفز واللهف المسعور - يفرغ من ذكر الإسلام ، ويحس بلدعته فى أعصابه ، لأنه يتخيل نفسه بشواظه الفائر فى دمه ، محروماً من كل متاع يطفئ لهفته ، فيجن جنون رغائبه ، ويتخيل هذا الإسلام كالغول المقترس الواقف بالمرصاد لكل متاع مرغوب .

* * *

وآخرون يستنفعون من تحطيم الفضيلة وإشاعة الفاحشة فى المجتمع ، فيفزعون فرقاً ويكرهون هذا الدين .

أصحاب الصحف العارية والمجلات المكشوفة .

أصحاب السينمات وصناع الأفلام .

كتاب القصص الجنسية .

كتاب الأفكار العارية المنحلة .

عبيد الاستعمار . . الذى يكره الإسلام ويفزع من انتفاضته . . فيسلط عليه عملاءه يحطمونه من الداخل ، وينخرون فيه كالسوس ، ويشوهون صورته فى الأذهان . . وينشرون فى الوقت ذاته الرذيلة لتملاً الفراغ . .

هؤلاء كلهم يفزعون من ذكر الإسلام ويكرهون هذا الدين ، لأنه ينظف المستنقع الذى يعيشون فيه ناجين رابحين .

* * *

ولا يعيننا الآن هذا الفريق الثالث وإن كان أخطر فريق !
وإنما يعيننا الفريق الأول والثانى ، لأنه حين يعرف هؤلاء الإسلام على حقيقته ويؤمنون به ، فلن يستطيع الفريق الثالث أن يصرفهم عنه ولو اتخذ إلى ذلك كل سبيل .

صورة الإسلام المشوهة فى نفوس الناس ، التى جهد الاستعمار فى تشويهاها ، وساعد « رجال الدين » بجمودهم وتحجرهم على تشيبتها . . هذه الصورة هى العدو الأول اليوم للفكرة الإسلامية .

كيف تكون صورة المجتمع المسلم ؟

إن كثيراً من المسلمين أنفسهم ، المخلصين لهذا الدين ، لا يعرفونها تفصيلاً ، ولا يعلمون كيف تكون .

والمشكلة الكبرى فى الأذهان هى وضع المرأة فى المجتمع المسلم ، ودورها الذى تؤديه فيه .

هل تخرج للشارع أو تبقى في المنزل ؟

هل تتعلم ؟ في أى مدى ، وفي أى نطاق ؟

هل تذهب للجامعة وتدرس دراسة مشتركة؟

ما تكون علاقتها بالطلبة في أثناء الدراسة ؟ تكلمهم ؟ تنأى عنهم ؟ في أى حديث تشرکہم ؟

هل تعمل ؟ أم ليس حالاً أن تعمل ؟

وكيف تتزوج ؟ تخرج تعرض نفسها ليعرفها الشبان ؟ أم تمكث في بيتها حتى يعثر عليها اعتباراً عابر طريق ؟

وما علاقتها « بالمجتمع » ؟ علاقة خوف ونفور ؟ أم علاقة سلبية لا تعطى ولا تأخذ ولا تشارك في أمر من الأمور ؟

وما « كيانها » في المجتمع المسلم ؟ إنسانة ؟ أم عبدة ؟ أم كم مهمل ليس له كيان ؟

وما حدود إنسانيتها ؟ وكيف تمارسها ؟ بالبعد عن الرجل ؟ أم بمشاركة؟ أم بمزاحمته ؟

ما وضعها بالنسبة للرجل على وجه التحديد ؟ زميلته ؟ مساويته ؟ تابعته؟ سيدته ؟

وكيف تمارس علاقتها معه ؟ تلقاه وتزامله وتناقشه وتصاحبه وتتعرف عليه بمفردها وتقيم معه علاقات « خاصة » ؟ وما مدى هذه العلاقة ؟

وما صورته في نفسها وخیلتها ؟ ذئب مفترس يُحذر ؟ أم عاشق وهان يُقبل ؟ أم معجب من بعيد ؟

وهل نحب؟ هل يخفق قلبها بالعاطفة نحو رجل معين؟ ثم . . . تبوح بحبها هذا أم تخفيه؟ و «تمارسه» في أية صورة؟

هل تقول لأهلها إذا تقدم إليها رجل: كلا . لست أحبه ، وأحب فلانا وأريده؟

وما علاقتها بأسرتها؟ فرد من القطيع الذى تتكون منه الأسرة؟ أم فرد له كيان؟ وما حدود الكيان؟ تخضع لأبيها وأمها فى كل أمر وكل نصيحة وكل توجيه؟ أم تناقش؟ وما حدود النقاش؟

وتخضع للتقاليد بلا اعتراض؟ أم تعترض عليها؟ وتعترض بالكلام فقط أم تنفذ ما تقول؟

وحيث تكون زوجة فهل تنتهى مهمتها؟ أنتقطع للأمومة وتنتهى صلتها «بالمجتمع»؟ أم لا تمنعها الأمومة من النشاط؟ وأي لون من النشاط؟

* * *

هذه وعشرات مثلها من المسائل هى أول ما يخطر فى البال عندما يذكر المجتمع المسلم . وتُتخيل صورة معينة للإجابة عليها ، ثم ينفص الموضوع كله أنه مستحيل .

وقبل أن نجيب على هذه المسائل ، وقبل أن نجيب على المسائل الأخرى المقابلة لها ، المسائل الخاصة بالرجل فى المجتمع المسلم ، وموقف الشباب الأعزب من المشكلة الجنسية . . . قبل أن نصنع ذلك ينبغى أن نعرف أولاً .

ما هو الإسلام؟ . . .

إن خطأ ضخماً جداً يقع فيه المؤمنون بالدين والخارجون عليه سواء حين

يناقشون المسائل مناقشة فرعية ، كل جزئية على حدة ، مفككة مقطعة ، دون أن يضعوها أولاً في مكانها من الصورة ، حتى تتبين دلالتها الحقيقية ، ويمكن الحكم عليها في سياقها الصحيح .

وحين ناقشنا الأفكار في أوروبا لم نناقش جزئياتها بمفردها . . إنها ناقشنا «المفاهيم» التي تحكم الجزئيات ، وتتفرع عنها الفروع . وهذا هو الواقع في كل «نظام» وكل فكرة : إنه تصور معين للأشياء في جملتها ، بنى عليه بعد ذلك التفصيلات والفروع .

والإسلام بصفة خاصة ينبغي أن يؤخذ كذلك . فكلما كانت الفكرة أضخم وأشمل لزم إدراك صورتها الكلية قبل البحث في التفصيلات . والإسلام أضخم فكرة عرفتها الأرض في تاريخها كله ، وأكبر مفهوم يشمل الحياة .

لذلك ينبغي قبل أن نسأل كيف يكون المجتمع المسلم ، والمرأة المسلمة ، والرجل المسلم ، أن نعرف الصورة التي يأخذها «الإنسان» في مفهوم الإسلام .

* * *

الذي يقرر مركز الإنسان في مفهوم الإسلام . . هو الله . . الله الذي خلق ، وهو أعلم بمن خلق .

والله يقول : « ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً^(١) » .

فالإنسان إذن - منذ البدء - مكرم مفضل رفيع المقام .

والله يقول : إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته

(١) سورة الإسراء «٧٠» .

ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين^(١) . فيقرر أنه قبضة من طين الأرض أكسبتها الكرامة والتفضيل على غيرها من الخلق نفخة من روح الله . وإذن فهو عنصران ممزوجان لا عنصر واحد وهو - ة - كل شيء - ء - ثنائي الطبيعة ثنائي الاتجاه : « ونفس وما سواها ، فألمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكّاهها ، وقد خاب من دساها^(٢) » . « ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفقتين ، وهديناه النجدين^(٣) » . « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً^(٤) » .

وهو مكرم مفضل بكيانه جميعاً . . فقبضة الطين قد امتزجت بنفخة الروح فلم تعد لاصقة بالأرض ، وإنما تميزت وتفردت عن بقية الطين . وهو - بكيانه المتمزج هذا - مقبول عند الله مفضل كريم . لادنس فيه ولا استقذار ولا تقزز منه ، ما دام سائراً مع فطرته مستجيباً لكيانه الأصيل . شهواته المنبثقة من طين الأرض وكيمائيات الأرض . . شهوات الطعام والجنس وغيرها من حوائج الجسد التي يقول العلم اليوم إنها مجموعة من الكيمائيات . . هذه الشهوات في الإنسان لا تنقص قدره ولا تحط من قيمته ، بشرط واحد ليس غير . . أن تظل على هيئتها الأصلية في فطرة الإنسان ممترجة بنفخة الروح ، لا منفصلة عنها ولا لاصقة بالطين : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة^(٥) » .

(١) سورة ص « ٧١ - ٧٢ » .

(٢) سورة الشمس « ٧ - ١٠ » .

(٣) سورة البلد « ٧ - ١٠ » .

(٤) سورة الإنسان « ٣ » .

(٥) سورة الأعراف « ٣٢ » :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ^(١) . . . » . « إن في بضع أحدكم لأجراً . قالوا : يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ثم يكون له عليها أجر؟ قال : أرايتم لو وضعها في حرام ، أكان عليه وزر ؟ قالوا نعم . قال : فإذا وضعها في حلال فله عليها أجر ^(٢) » .

والإنسان في نظر الإسلام « إنسان » . . عريق الإنسانية منذ نشأته ، علوى رفيع ، بنفخة الله فيه من روحه . وهذه النفخة الإلهية في الإنسان تمتدى دائماً إلى منشئها . تمتدى إلى الله بالفطرة مادامت سليمة . والإنسان هو الذى يوكسها ويغشها ويغشها فلا ترى سبيلها إليه . وحيثئذ ينحرف ، ويضل ، ويحدث منه كل أنواع الظلم: لنفسه وللآخرين . وكل أنواع الفحش . وكل أنواع الطغيان .

ومن ثم هو مطالب أن يزكى نفسه ولا يدسيها . يزكيها ويجلو فطرتها ، فتهتدى إلى الله خالقها ، وتستمد منه التوجيه . وحين يحدث ذلك تصبح هذه الذرة الضعيفة التائهة الفانية . . أقوى عنصر على الأرض وأضخم طاقة . . ويصبح الإنسان بحق خليفة الله في الأرض : يبنى ويعمر ، ويقيم وينشئ ، ويبعد وينظم ، مستمداً من روح الله ومن معونة الله ، مهتدياً بهديه القويم .
والإسلام كذلك نظام متوازن .

فكما وزن بين قبضة الطين ونفخة الروح ، ومزجها فهما شىء واحد ، فكذلك يوازن بين مختلف القوى والطاقات في نفس الإنسان وفي واقع الحياة سواء .

(١) سورة آل عمران « ١٤ » .

(٢) رواه مسلم .

يوازن في داخل النفس بين الواقع المادى والواقع الروحى . بين دفعة الشهوة وانطلاقة الروح بين الواقع المدرك بالحس والواقع المدرك بها وراء الحواس . بين الشعور المستتر فى الضمير والسلوك الظاهر للعيان . بين ضغط الضرورة وحرية التوجه والاختيار .

ويوازن فى واقع الحياة بين القوى المادية والاقتصادية والسياسية ، وبين القوى الخلقية والمعنوية والروحية . يوازن بين الفرد والمجتمع ، ومصصلحة الجيل ومصصلحة الأجيال .

ويمزج دائماً بين الدين والدنيا . . ويوحد الدنيا والآخرة فى نظام . والإسلام نظام عملى . .

لا يكتفى بالوعظ والإرشاد و « تنظيف الروح » .

إنه يعلم جيداً أن تنظيف الروح لا يتم بالوعظ والإرشاد إذا كان المجتمع فاسداً والنظام منحلاً والاقتصاد جائراً والسياسة غير نظيفة . إنه لا يفصل بين الروح والجسد وبين الواقع والمثال . إنه يعلم أنه لكى يصل إلى هدفه من تنظيف الروح لابد من إقامة نظام اقتصادى عادل ، ونظام اجتماعى متوازن ، ونظام سياسى راشد محكم الرباط .

ومن أجل ذلك لا يضع مبادئه فى إطار جميل من المثل ، ويتركها معلقة فى الفضاء . إنه يسعى إلى تحقيق الفكرة فى عالم الواقع ، وإقامة المجتمع كله . . . بكل تفصيلاته . . على أساس الإسلام .

ومن ثم - لكى يكون المجتمع مسلماً حقاً - لابد أن يشتمل على الحكومة المسلمة ، والمدرسة المسلمة ، والأسرة المسلمة ، والفرد المسلم ، والإذاعة المسلمة ، والصحيفة المسلمة ، والكتاب المسلم ، والسيئنا المسلمة ، والإعلان

المسلم ، واللفظة المسلمة ، والفن المسلم ، والاقتصاد المسلم ، والفكر المسلم . . وكل شيء ينبغى أن ينبثق من الإسلام ويخضع لمنهج الإسلام .

ولا نعنى بالإذاعة المسلمة والصحيفة والكتاب والسينما والفن . . . إلخ .
لا نعنى الصورة الساذجة التى تفهم من اسم « الدين » : أن تنقلب كلها خطباً منبرية ومواعظ دينية .

كلا . إن الإسلام غنى عن هذا ، وهو أوسع وأشمل وأرحب من أن ينقلب إلى خطب مملولة وأحاديث مكرورة وكلام معاد .

الإسلام هو الحياة بأكملها فى صورة نظيفة . . الصورة التى تلتقى بفطرة الحياة كلها . . الفطرة التى لا تكتفى بأداء الضرورة وإنما تهدف إلى الإحسان .
فكل شيء تنطبق عليه هذه الصورة فهو إسلام .

الشعر الذى يتحدث عن جمال الطبيعة الفاتنة ، الذى يتحدث عن القوة ، الذى يتحدث عن انطلاق الطاقة البشرية للعمل والإنتاج ، الذى يتحدث عن العواطف الإنسانية النظيفة ، الذى يدفع ويحرك إلى الأمام ، الذى يفتح الأمل أمام البشرية ، الذى يشعر الناس بجمال الحياة وأنها جديرة بأن يحياها الإنسان ، الذى يتحدث عن آلام البشر ، الذى يدعو إلى إزالة المظالم وإصلاح الفساد الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، الذى يصف الحياة كما ينبغى أن تكون . . كل ذلك شعر إسلامى لأنه تعبير عن الفطرة النظيفة ، ولو لم يذكر فيه مرة واحدة اسم الدين ، ولا مفاهيم الدين المباشرة .

ولكن الشعر الذى يتخصص فى وصف دفعة الجسد المشبوبة . الذى يدور كله حول أحلام جنسية واقعة أو مشتهاة . الذى يصف جسد امرأة عربان أو شهوان . الذى يصف لحظة الخضوع للضرورة لا لحظة الترفع عن الضرورة

والشعر الذى يثير الأحقاد . . والشعر الذى يصف لحظات الضعف البشرى بكل أنواعها . الشعر الذى يعبر عن ضلال الكائن البشرى وضآلته وظلامه . . كل ذلك ليس شعراً إسلامياً ولو لم يتعرض بكلمة واحدة للدين والعقيدة والمفهوم « الرسمى » للأخلاق ، لأنه يمثل الفطرة المنحرفة أو الفطرة الضعيفة ، ومن ثم لا يتمشى مع الهدف الأصيل للإسلام .

ويسأل الواقعيون والطبيعيون وأشباههم : أليست لحظة الضعف حقيقة بشرية ؟ فكيف لا يعبر عنها الفن ؟ والجواب أولاً أن الفن ليس آلة تسجيل لا قطة تسجل كل شىء على ما هو عليه ، وإنما هى تختار وتتقى « اللقطة » التى تسجلها . والجواب ثانياً أن لحظة الهبوط ليست أجمل ما فى الإنسان ولا أجدر شىء بالتسجيل . إنما الجدير بالتسجيل هو اللحظة التى يحقق فيها الإنسان ذاته . لحظة امتزاج الطين بنفخة الروح ، لا لحظة انفصال الطين ولصوقه بالأرض . والجواب ثالثاً أن لحظة الهبوط يمكن أن تسجل تسجيلاً فنياً كاملاً ، على ألا تكون هى محور التلذذ وإثارة الإعجاب . أى لا يكون الهبوط هو البطولة التى يسلط عليها الضوء ! وإنما يسلط الضوء على لحظة الإفاقة . اللحظة التى يعود فيها الكائن البشرى إلى أصالة الفطرة ، اللحظة التى تعود فيها قبضة الطين فتمتج بنفخة الروح . ومثال ذلك قصة يوسف عليه السلام فى القرآن . قصة دقيقة الوصف بديعة التصوير لا ينقصها شىء من جمال الفن . وهى تعرض لحظة من اللحظات الغليظة فى حياة النفس البشرية « الواقعية » ! لحظة هياج الشهوة وتغلبها على كل صوت وكل نداء . ومع ذلك فهو وصف لا يثير ولا يبعث التلذذ من منظر الجنس ، إن لم نقل إنه على العكس يثير الترفع عن اللحظة الهابطة ويدعو للاحتراس .

وما ينطبق على الفن بشعره ونثره ولوحاته ينطبق على السينما والمسرح والإذاعة والموسيقى والغناء . . وبذلك تختفى المثيرات الجنونية التى تهيج

الشباب وتطلق في دماهم النهم المسعور . وفي الوقت ذاته لا يفقد المجتمع عنصر المتعة وعنصر الجمال . . فليس المتاع كله أقدار .

وعندئذ لا يصعب على الشباب أن يحاولوا الفضيلة ويقدرها عليها . فإنها يصعب عليهم في الوقت الحاضر ، بل يتعذر ، لأنهم وهم لحم ودم ودوافع وأعصاب ، يعيشون ليل نهار وسط مشيرات جنونية تنفخ في أعصابهم باستمرار، وتحسن في أعينهم المنكر ، وتشجع المترددين . والمترددات ، وتنفي عنهم في الوقت ذاته - بوسائلها المختلفة - كل صوت فاضل وكل توجيه سليم .

وعندئذ تخرج الفتاة أو لا تخرج . . وتعمل أو لا تعمل . . وتلقى الرجال أو لا تلقاهم . . فليست العبرة في ظاهرة العمل إنما العبرة بالهدف وطريقة التنفيذ .

حين يوجد المجتمع المسلم القائم على أخلاق الإسلام ونظام الإسلام ، فيمكن عندئذ أن نبحت التفصيلات والفروع . ونبحث وضع المرأة ووضع الرجل وكل ما بينهما من شئون .

ولكن أولاً يجب أن نطمئن إلى قيام مجتمع مسلم .

مجتمع يتوجه إلى الله ، ويستمد منه منهج حياته ، ويسير على هديه الذي ارتضاه .

مجتمع يعبد الله . يعبده فعلاً لا قولاً . يؤدي عباداته وفرضه مؤمناً بها منفذاً لها : « ليس الإيمان بالتمنى . ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل » .

مجتمع لا يكتفى بأن يصلى ويصوم ويدفع الزكاة .

مجتمع لا يفعل الفاحشة ولا يسمح بوقوعها ولا يدعو إليها ولا يجذبها .

مجتمع يقوم على المودة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

مجتمع لا يسرق ولا يكذب ولا يغش ولا يخدع .

مجتمع لا يغتاب ولا يتجسس ولا يغمز ولا يلمز .

مجتمع تآمن فيه أن تتعامل مع العامل فلا يغشك وينهب نقودك . ومع الموظف فلا يستهتر بمصلحتك . ومع التاجر فلا يغشك في السعر أو البضاعة . ومع المدرس فلا يسدد الخانات ويترك التلاميذ يرسون ليأخذوا دروساً خصوصية . ومع الطالب فلا يغش في الامتحان ولا يأخذ العلم وسيلة للشر . ومع الزوج فلا يظلم امرأته ولا يهدر كيانها . ومع الزوجة فلا تخون زوجها في عرضه أو ماله . مع الوالد فلا يكذب على أبنائه فيعلمهم الكذب ، ولا يعطيهم في شخصه قدوة السوء ، ولا يريهم على الجبن والاستخذاء والانحلال والسلبية . مع الابن فلا يغش أباه ولا يخدع أمه ولا يسلك معها سلوك الأشرار . . مع الحاكم والمحكوم والصغير والكبير على السواء .

مجتمع توازنت اقتصادياته . . لا فقير يموت جوعاً ولا غنى يفسد قلبه

الثراء .

مجتمع ليس فيه متعطل ، فالبطالة من منابت الشر . لا متعطل لأنه لا

يجد العمل . ولا متعطل لأنه تافه يملأ قلبه الفراغ . .

مجتمع لا يطغى بجبروته على الفرد ولا يسمح للفرد أن يتجبر عليه . مجتمع

يجب السلام ويعمل من أجله : السلام في البيت وفي الشارع ، وفي الفرد ،

وفي المجموع .

مجتمع نشيط عامل منتج مفكر صاعد على الدوام

* * *

ذلك هو المجتمع المسلم . .

من يجروء على أن يكره هذه الصورة الجميلة أو ينفر منها ؟

من إلا مسخ مشوه منحرف الفطرة يريد أن يستمتع على طريقة الحيوان أو يأخذ من المجتمع ولا يعطيه ؟

وتلك بطبيعة الحال صورة مجملة مصوغة في قالب تبدو وكأنها مثل خيالية أو أمانى وأحلام .

ولكنها واقع شهدته الأرض مرة بكل حقيقته وكل واقعيته ، في فترة رائعة من فترات التاريخ . ويمكن أن يعود . .

وسوف يعود . . إن شاء الله .

وفي هذا المجتمع لا ينقلب الناس إلى ملائكة أطهار . وإنما هم بشر يحققون فطرتهم الحقيقية : قبضة الطين الممتزجة بنفخة الروح . يترفعون عن الفاحشة ، لأنهم أغنياء عن الفاحشة .

ولن يكونوا بطبيعة الحال كلهم كذلك .

ففى المجتمع الربانى الذى أنشأه محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - بشخصه الكريم وروحه النبيلة العالية ، وجد من يلزم الرسول ذاته فى عرضه فى حديث الإفك المشهور .

كلا ! لا يحدث قط فى أى مكان فى الأرض وأى فترة من التاريخ أن يصبح الناس كلهم من الأخيار .

ومع ذلك فهناك فرق حاسم واضح بين مجتمع تكون فيه الجريمة شذوذاً يستنكر ، ومجتمع يكره الفضيلة ويعدها هى الشذوذ ، كذلك المجتمع الذى حكى عنه القرآن وهو يقول : « أخرجوا آل لوط من قريبتكم ، لإنهم أناس

يتظهرون ! » وكما يوشك المجتمع الذى نعيش فيه أن يكون .

* * *

فى هذا المجتمع نعرض وضع المرأة ووضع الرجل على السواء .

مجتمع من الأحرار . . رجل حر وامرأة حرة .

ومعنى الحرية فى الإسلام واسع جداً وشامل جداً . . لم يرتفع لمستواه أى مدلول آخر من المدلولات الشائعة حتى اليوم ، فى الشرق والغرب على السواء .

حرية إزاء القيم كلها والقوى كلها والاعتبارات كلها . . وعبودية واحدة لله .

الله هو المعبود الأحد فى المجتمع المسلم . لا المال ولا الجاه ولا المنصب ولا الشهوة ولا الهوى ولا الإنسان .

الله هو المعبود . وكل شىء غيره هباء .

والمرأة والرجل كلاهما عبيد الله . أحرار فيما خلا ذلك يستمدون الحرية من هذه العبودية ذاتها لله .

فحينما يعبد الإنسان الله حق عبادته ، ويتصل به الاتصال الحق ، ويستمد منه الاستمداد الحق ، يحس من لحظته بضالة كل قوة أخرى على الأرض ، وكل قيمة أخرى وكل جاه وكل سلطان .

وعند ذلك يتحرر .

يتحرر من الضغط الواقع عليه من داخل نفسه ومن خارجها على السواء . ضغط الشهوات والضرورة من جانب ، وضغط المجتمع وقواه الاقتصادية والاجتماعية من جانب آخر .

يتحرر . . لأنه قوى بالله ، غنى بالله ، مستمد من الله ، واصل إلى حماه .
لا يخاف الموت ، ولا يخاف الفقر ، ولا يخاف الظلم ، ولا يخاف الهيم ، ولا
يخاف الحاضر ، ولا يخاف الغد .

لا يخاف . . لا لأنه لا يبالي . . ولكنه لأنه متصل بالقوة الحقيقية التي
تملك كل شيء في الحياة . ولأنه على استعداد لأن يكافح كل ما يقع عليه من
ظلم ومن ضيم ، مستعيناً بالله ، مستوثقاً من معونته إياه .

وليس معنى تحرره أنه لا يخضع لنظام .

كلا ! فما يمكن أن تسير الحياة على هذه الصورة ، ولا يمكن أن يحدث
ذلك إلا حين يُتبع الهوى والشهوات . وليس هذا هو التحرر . . فالتحرر يعنى
كذلك التحرر من الهوى والشهوات .

وإنما هو حين يخضع للنظام الذى ارتضاه الله ، يخضع في الحقيقة لله ،
ويتعامل مباشرة مع الله .

ومن ثم يطيع ولى الأمر ويطيع نظامه المستمد من شريعة الله . ويبدى له
النصح والتوجيه الذى يتفق مع الخير العام .

وهكذا تمتزج الطاعة والحرية على هذه الصورة الفريدة التى لا توجد إلا في
نظام الله .

وكذلك لا تستعبد المرأة للرجل وهى تطيعه - فى الحدود المرسومة فى شريعة
الله - فهى تملك - بل واجبها - أن توجه رجلها إذا رأتة ينحرف عن طريق الله .

* * *

لا تستعبد المرأة للرجل . . لأنه ليس أحد عبداً لأحد قط غير الله . ولا
تستعبد للمجتمع ولا لأى قوة من قوى الأرض .

وإنها هي - كالرجل - عبد الله تطيعه ، وتتعامل معه مباشرة ، وتحس بالتبعية الخالصة له وحده ، والقوة الكاملة عن طريقه : « ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان ، أن آمنوا بربكم فآمنوا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ولا نخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد ، فاستجاب لهم ربهم : أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض »^(١) .

هذا الارتباط بالله هو الذى يعطى للمرأة كرامتها الإنسانية واستقلالها الحقيقى . إنها فى عرف نفسها - وهى كذلك عند الله - مخلوق إنسانى كريم متصل بالله ، مستمد منه كل حياته وكل كيانه وكل قواه .

وهذا الارتباط هو الذى يمنحها شخصيتها - بنفس الصورة التى يمنح للرجل شخصيته .

إنها ليست جزءاً من أحد . ليست كياناً ناقصاً يستكمل ذاته من كيان بشرى آخر (إلا بمقدار ما يستكمل الرجل كيانه فى ارتباط الزوجين . . وهذا أمر آخر . .)

وحين تطيع الرجل فيما فرضه الله عليها من طاعة ، فهى لا تفقد كيانها ولا استقلالها وشخصيتها . ومرد الشخصية الدائم ومحك الاستقلال الدائم ، أنها تملك - بل من واجبها - أن ترد الرجل إلى الصواب حين تراه انحرف عن سبيل الله .

لا شئ يعطى الإنسان شعوره بشخصيته بقدر ما يعطيه ذلك الحق . . حق التوجيه .

(١) سورة آل عمران « ١٩٣ - ١٩٥ » .

لقد كان كفاح الشعوب كلها في سبيل شعورها بذاتيتها وتحقيق كيانها هو أن تصل إلى هذا الحق . . حق توجيه الحاكم حين يخرج عن القواعد المرسومة التي يخضع لها الجميع من حاكم ومحكومين .

وهذا الحق هو حق كل فرد في المجتمع الإسلامى . حق المرأة وحق الرجل على السواء .

وحين تدرك المرأة في نفسها هذه القوة التي تستمدّها من اتصالها بالله ، تكون لها في صميم كيانها شخصيتها المستقلة وذاتيتها المتحققة في واقع الحياة .

وليس الاستقلال أن تناجز زوجها وتقف منه موقف المتحفز للهجوم .

ليست الحياة معركة في داخل البيت ، ويكفى أن تكون معركة ضد قوى الشر المتخفزة في كل مكان .

الحياة في البيت محبة وسكن ومودة : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » (١) .

وحين توجد المحبة يوجد الامتزاج الكامل الذي لا يحس فيه أحد الزوجين أين ينتهى وأين يبدأ الآخر . .

ولكن مع ذلك توجد اللحظة التي يرغب كل منهما أن يحس بذاتيته ويعرف حدود كيانه . .

فتلك هي الحدود . .

كلاهما عبد الله . وكلاهما يملك - بل من واجبه - أن يوجه الآخر إلى طاعة الله .

بل هي تملك أن تحتج عليه - في عنف - إذا خالف .

(١) سورة الروم « ٢٠ » .

بل هي تملك أن تقول له : لست زوجتك منذ اليوم ، مادمت قد خرجت
عن طاعة الله^(١) .

بذلك تحس بكيانها كاملاً ، عن طريق الارتباط بالله .

* * *

وليس بهذا وحده تجد المرأة شخصيتها . فإنها - شأنها في ذلك شأن الرجل -
تملك أن تجد شخصيتها بأن تصبح - باختيارها - امرأة فاضلة .

إن الفضيلة في المجتمع المسلم ليست مفروضة على المرأة بالسيف كما يخيل
لبعض الناس . إن الذي يفرض بالسيف هو الحد الأدنى من الفضيلة - القدر
الذي لا يستطيع المجتمع أن يعيش بدونه . وهذا القدر - في المجتمع المسلم -
مفروض على الرجل كما هو مفروض على المرأة بنفس المقدار ، سواء في التشريع
أو التوجيه :

« الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة^(٢) » .

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . . . وقل للمؤمنات
يغضبن من أبصارهن ويحفظن فروجهن^(٣) » .

وحتى هذا القدر المفروض بسلاح القانون ، يملك الرجل وتملك المرأة أن

(١) هذا بطبيعة الحال بجانب حقها الشخصي الدائم في الانفصال عن زوجها إذا كانت
كارهة للحياة معه . انظر بالتفصيل : فصل « الإسلام والمرأة » في كتاب « شبهات
حول الإسلام » .

(٢) سورة النور « ٢ » .

(٣) سورة النور « ٣٠ - ٣١ » .

«يختار» فيه موقفها فيصبحا فاضلين اختياراً لا عنوة ، وعن إيمان صادق
لا عن خوف ورهبة من العقاب .

وهذا هو الذى يصنعه الإيمان في نفوس المؤمنين .

ولكن الفضيلة أوسع بكثير جداً من هذه الحدود « الرسمية » التى تمثل
الحد الأدنى الذى بدونها ينهار المجتمع من أساسه . إنها تشمل بناء النفس
كله . وتشمل كل تصرف وكل شعور .

وهنا يملك « الإنسان » - رجلاً كان أو امرأة - أن يكون فاضلاً باختياره ،
ترفعاً منه عن الهبوط والتردى في حماة الرذيلة . . ويحس عند ذلك إحساساً قوياً
بأنه إنسان . وأنه ذو وجود على أوسع نطاق .

تملك المرأة ألا تكذب . .

والكذب رذيلة لا يعاقب عليها قانون الأرض . فهى حين تمتنع عن
الكذب ، لا تمتنع خوفاً من العقاب وإنما هى تصدق ترفعاً عن الهبوط للرذيلة ،
وإباء بكيانها المسلم أن يسفل وينأى عن طريق الله .

وتملك ألا تتجسس .

وتملك ألا تغمز وتلمز .

وتملك ألا تخادع وألا تغش .

وتملك - باختصار - أن تكون مستقيمة في سلوكها وشعورها وأفكارها
وحركاتها وسكناتها . .

وحينئذ تحس بنفسها على أنها « إنسان » . وتصغر القيم الأرضية كلها في
نفسها ، ولا تحس لها بوجود إزاء كيانها المتحقق الكبير .

* * *

وهي تملك قبل ذلك كله أن تكون صاحبة عقيدة . عقيدة إيجابية نشيطة فاعلة .

والعقيدة الإسلامية بذاتها عقيدة متحركة لا تملك السكون . فما أن تأخذ مكانها الحق في النفس حتى تطلقها . . تطلقها في كل اتجاه .
وليس كالشعور الإيجابي منشط لكيان الإنسان ومحقق لوجوده .

وليس مثله علاج لأمراض النفس كلها . علاج لضعفها وقصورها وسلبيتها . علاج لعقدها وأمراضها واضطراباتها .

ومن ثم كان المجتمع - المسلم - الحق - أقل المجتمعات أمراضاً نفسية واضطرابات عصبية . لأن الانطلاق الإيجابي الذي تحدته العقيدة يطلق الطاقة الكامنة من معقلها ويفرغها في سبيل الخير ، فلا تحبس النفس كبتاً ولا تجرد طاقة حيوية تبحث عن تنفيس ، هو تنفيس منحرف في أغلب الأحيان .

والإيجابية ألوان كثيرة وميادين متعددة . إنها ليست محصورة في نطاق معين إنها ليست العمل المادي وحده . إنها كل عمل . وكل فكرة وكل شعور . وكل خاطرة في الضمير .

إن مجرد أن يكون للإنسان اتجاه محدد تجاه الأشياء والأحداث والأشخاص . مجرد أن يكون له رأى . مجرد أن يكون له مقياسه الذي يقيس به الأشياء ويصدر حكمه عليها . . . هذا وحده يعطى النفس إيجابية هائلة ، يتبين أثرها في المشاعر كما يتبين في الأقوال والأفعال . .

والعقيدة تصنع ذلك . إنها تمنح الإنسان المقياس الذي يحكم به على الأشياء والأحداث . والأشخاص . تمنحه الرأى الذي يكوّنه . ويكونه لا عن هوى واستجابة للشهوات (فهذه سلبية وإن بدت إيجابية) وإنما يكون عن

محك موضعي يبدو فيه نضوج الشخصية والقدرة على التمييز .

وهذا الميدان مفتوح للمرأة كاملاً بقدر ما هو مفتوح للرجل . والمرأة المؤمنة - رغبت أم لم ترغب - لابد أن تكون لها الشخصية الإيجابية تجاه الأشياء ، لأنها لا تستطيع أن تقبل ما يخالف عقيدتها وحكمها على الأشياء ، ولو صدر من أقرب الناس إليها : أهلها أو زوجها أو أبنائها . ولا بد أن تبدى رأياً بالموافقة أو الرفض في كل ما يعرض لها من شئون . .

وليس من شيء يمنعها - بعد - من الجهاد في سبيل هذه العقيدة حين يحتاج الأمر إلى الجهاد . . جهاد بكل الوسائل حتى ساحة القتال .

* * *

وهي تملك الإحساس بشخصيتها وإيجابيتها وفعاليتها في أبنائها . في تربيتهن على العقيدة وتوجيههن إلى الصواب .

إن المرأة في عرف الإسلام ليست آلة للولادة والحضانة والإرضاع . .

وإلا لما حرص كل الحرص على تهذيبها وتعليمها وتقوية الإيمان في ضميرها وتوفير الضمانات المعيشية والقانونية والنفسية والروحية لاستقرار كيانها .

إن الإسلام لا يبذل كل هذا الجهد المضمن لتربيتها - وتربية الرجل كذلك - من أجل شخصيتها كفردين يقضيان فترة على الأرض ثم يمضيان .

كلا ! فما تساوى المسألة على هذا الوضع كل ذلك الجهد .

إنما يعمل الإسلام دائماً حساب الأجيال القادمة التي تقوم بتربيتها الأجيال الحاضرة . ويهذب الحاضر ليكون في الغد - دائماً - نتاجاً نظيفاً .

وهو في هذا يعنى بالرجل والمرأة كليهما باعتبارهما الأب والأم للنتاج الجديد

ولكنه يعنى بالمرأة خاصة لأن الأم هى منشئة الأجيال . المنشئة الحقيقية .
والأب يشارك فيما بعد . وقد يتولى الأمر وحده - أو بصفة رئيسية - بعد ذلك ،
ولكن الانطباعات الأولى فى نفس الطفل ، الانطباعات التى تندس فى حسه
وهو وليد ، وتكون شخصيته فيما بعد ، هذه الانطباعات يأخذها من أمه
أكثر ، بحكم التصاقه بها التصاقاً حسيماً ومعنوياً حتى يملك على الأقل أن
يسير ، ويوسع دائرة « المجتمع » الذى يعيش فيه .

من أجل هذا وفر الإسلام للمرأة ضمانات الحياة ، ولم يوجهها إلى أن تعمل
لكفالة نفسها وأسرتها . لكى تتوفر على أخطر مهمة فى حياة البشرية : مهمة
الإنتاج البشرى ، ورعايته وصيانتته من الفساد .

وإنها حماقة ما بعدها حماقة - فى عصر التخصص ! - أن تنزع المرأة من
اختصاصها الذى لا يحسنه غيرها ، لكى تشارك فى الإنتاج المادى ، الذى
يملك الرجل أن يقوم به ، وتملك أن تقوم به العدد والآلات !
وقد كنا نتحدث عن الإيجابية . .

والمرأة تملك أن تحس بإيجابيتها وتحقق كيانها فى تربية أبنائها . نقول فى
التربية لا مجرد الولادة والحضانة والإرضاع ، التى تقوم بها كل قطة ولود وكل
بقرة حلوب .

التربية . . التكوين النفسى للأطفال . . بذر العقيدة الصحيحة فى التربية
الجديدة . . غرس الفسيلة النابتة فى موضع جديد .

إنها جهد ضخم شاق مجهد طويل . وهو جهد إيجابى حين تحسنه المرأة . .
وهى تملك الإحسان !

* * *

وليس معنى ذلك ألا تعمل !

الإسلام لا يمنع العمل . كل ما في الأمر أنه لا يستريح إليه . يميزه كضرورة . ولكنه لا يجعله الأصل في الأشياء .

إنه يكره أولاً تجنيد طاقة المرأة في غير ميدانها الأصيل . ويكره ثانياً أن يكذب أعصابها ويهرقها بالعمل ، فلا تبقى فيها بقية مشرقة رفاقة ندية ودود ، ترف بعذوبتها على جو المنزل ، وتمسك رباطه بسحرها المتجدد الفياض . وحين تعمل المرأة فإنها تعود - كالرجل - مكدوده مرهقة الأعصاب ، فتناطح الرجل ويناطحها ، صليدين لا يتفاهمان . وفوق ذلك لا يشعر الأولاد بأنهم يملكون أمًا . وإنما كأنها أبوان مذكران !

لذلك حرص الإسلام أن يكفل لها ضرورة العيش دون حاجة إلى الكد والعمل للارتزاق . وإن كان لم يحرم العمل حين توجد الضرورة . . وهي توجد على الدوام !

أما في الأعمال النسوية الخالصة: التدريس والتمريض والتطبيب للنساء . . فهو لا يميز العمل فقط ، بل يفرضه فرضاً كما يفرض التجنيد العسكري على الرجال .

* * *

أما العلم فهو فريضة . . وليس لهذه الفريضة حدود .

كل ما في الأمر أنها ينبغي أولاً أن تتعلم ما يناسب فطرتها ، ويعدها لمهنتها الكبرى في إنشاء الأجيال ، وبعد ذلك تتعلم - إن أرادت - كل ما تشاء بغير حجر ولا تحريج . .

وهذا يجزنا إلى موضوع الاختلاط . . فحين نتعلم تعليماً جامعياً ستختلط مع الشبان^(١) .

ولقد حاولت - مخلصاً - أن أجد المبررات لإباحة الاختلاط !

قرأت ما يقال من حجج وأردت أن أميل إلى التصديق !

قرأت حكاية التهذيب !

المجتمع المختلط يهذب المشاعر الجنسية ويكسر من شدتها . لأنه لا يوجد الجوع الجنسي الكافر الذى يؤدى إلى الانحراف أو الشذوذ .

وحيث يرى الشاب الفتاة وتراه ، ويطمئن كل منهما إلى الرؤية والمقابلة ، وتزول اللفهة المتلصصة المختلصة ، لا يعود الجنس هو الشاغل الأول ، ويرتفع الشاب والفتاة عن بهيمية الغريزة ، لأنها سيشتغلان لقاءهما بأحاديث علمية وأدبية ، ومناقشة أمور سياسية واجتماعية وفكرية . . . أشياء خارجة عن نطاق الجنس .

وحيث يوجد الشاب فى مجتمع مختلط تنهذب ألفاظه . فلا ينطق بالفحش الذى يستبيحه لنفسه فى مجتمع الشبان . .

وحيث تعود الفتاة على لقاء الرجل وصحبته تتغير صورته فى نفسها فلا يعود هو الذئب المفترس ، ولا الحيوان الغريب الأطوار ، ولا الكائن المرهوب . . ولا الجسد الظامئ الذى يتلمظ على جسد شهوان .

وحيث يلتقى الجنسان يتعرف كل منهما على طباع الآخر . . ولا يصبح اللقاء فى الزواج هو المفاجأة المذهلة التى تحير الأعصاب وتربك الأفهام .

(١) الأصل فى نظر المجتمع الإسلامى أن تكون هناك جامعة نسوية ، ولكننا نفترض التعليم المشترك ضرورة .

وحين يرى الشاب النساء ويختلط بهن في المجتمع ، يحدث ذلك التصريف الجنسي النظيف الذي يرفع الحمل عن كاهل الأعصاب ويجعل الشاب يتفرغ للإنتاج : طالباً كان أم موظفاً أم عاملاً . .

وحين ترى الفتاة الرجال وتختلط بهم في المجتمع ، يحدث هذا التصرف ، فلا تعود الفتاة تنفق طاقتها كلها في التزين الذي تتصيد به الرجال ، ولا يعود الصيد هو همها المقعد المقيم .

وحين . . . وحين . . .

ولقد أردت نفسي على أن تصدق ذلك كله . . وملت إلى التصديق !

ثم بحثت عن هذه الصورة الجميلة اللطيفة الرفيعة السامية . . أين توجد؟ أين توجد لأراها وأصدقها في واقع الأرض لا في المثل والأحلام؟

في الغرب؟ في الشرق؟ في مصر؟ في بلد من بلاد الأرض؟

هل أمريكا تعاني الكبت الجنسي بسبب عدم الاختلاط؟

ما بالها إذن تعج « بالفضائح » الخلقية . . الفضائح التي يصل الأمر بهذا المجتمع المنحل ذاته أن يصفها بأنها فضائح ، ويبحث لها عن علاج؟

وما بالها تعج بالشذوذ الجنسي^(١) .

وما بالها تعج بحوادث الطلاق التي تزيد نسبتها عن أى بلد آخر على ظهر الأرض بما في ذلك مصر !

(١) قلت في كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » : إن انتشار الشذوذ الجنسي في فرنسا وأمريكا اللتين تتيحان كل فرص الإشباع الجنسي وتهيئان له كل وسيلة ، أمر يستلفت النظر . ويدور أن الشذوذ الجنسي في هذه الحالة ينتشر كلون من التغيير !

وهل دول الشمال في أوروبا ينقصها الاختلاط ، أو التهذيب ، أو التوازن الاقتصادي ، أو الاستقرار السياسي ، أو أى أمر من الأمور ؟
فها بال التحلل الخلقى هناك شنيعاً إلى أقصى حد ؟ الطالبة تذهب بنفسها إلى بيوت الطلبة لتستذكر معهم الدروس . . في الفراش ! ومعها - قبل أن تذهب - وسائل منع الحمل من أدوات وأقراص !
ومؤقتاً . . لا أتحدث عن الأخلاق .

أتحدث عن الأمر من جهته النفسية البحتة . . أين هو الشعب الذى يحدثه الاختلاط ، فيغنى عن العمل الجنسي الكامل ، بل يغنى عن الإصراف فيه ؟
الذى حدث في أوروبا وأمريكا هو العكس . حدث سعار جنسى مجنون .
كل الذى اختفى هو « التحايل » للحصول على المتعة المحرمة ، والمعاكسة في الطرقات . وهذه لم تحتف ترفعاً ، وإنما اختفت من شدة التيسير !
فهل هذا الذى نريده ؟ أو هذا الذى ندعو إليه - إن كنا في دعوتنا مخلصين .

هل « التهذيب » في عرفنا هو هذا الذى نراه في الغرب ؟ هل حين نتخفى المعاكسات نعتبر أن المجتمع قد تنظف ، وأنا صرنا فضلاء ؟ ولو كانت البيوت والنوادى والطرقات أحياناً تتحول إلى مواخير ؟!
ليس للاختلاط غير هذه النتيجة في كل التاريخ . . كذلك كان في أثينا القديمة وروما القديمة وفارس القديمة والهند القديمة . . وكذلك اليوم بعد مئات السنين من التقدم و « التطور » والمدنية .

وحين أوازن بين كل « المضار » التى ينشئها عدم الاختلاط ، وكل « التهذيب » الذى يحدثه الاختلاط ، فأنا أختار الأول بلا تردد ولا حاجة إلى مزيد من التفكير !

* * *

على أن الحجاب التركي الذى تسرع صورته إلى الأذهان ليس هو المقصود من فكرة الإسلام .

ليس المقصود أن تختفى المرأة عن الرجل اختفاء كاملاً حتى تشغل كل خيالاته المريضة . . ولا أن يختفى الرجل عن النساء .

المقصود فقط أن لا تنشئ معه علاقة « خاصة » لا ترتبط برباط شرعى على معلوم .

فهذا الباب هو الذى يدخل منه الشيطان ، ولا يخرج منه على الإطلاق .
فهى تخرج وترى الرجال ويرونها . . بشرطة ألا تكون عارية قد خرجت للفتنة والصيد والإيقاع .

ليس الخروج هو المنوع فى ذاته . وإنما الهدف هو موضع السؤال . تخرج لتتعلم ؟ تخرج لتعمل ؟ تخرج لترى الشمس والهواء ؟ ذلك كله مباح . كله نظيف . كله مشروع . أما أن يكون فى باطن إحساسها إثارة الفتنة وتصدى الأنتى للذكر . ويكون العلم أو العمل أو النزهة ستاراً لكل ذلك . . فهنا يقع الحجر ، لأن هذا أول الطريق الذى نهايته ما نراه فى الغرب المنحل وفى الشرق المفتون .

وهى تتعامل مع الرجل ويتعامل معها . . يكلمها وتكلمه ، ويناقشها وتناقشه ، ويرشدها ، ويتبادلان الخدمات التى تحتتمها ضرورات الحياة ، فى هذا الجو النظيف المكشوف ، الذى لا يخفى وراءه الفتنة ، ولا تتخلله ضحكة فاجرة ولا نظرة جاهرة ولا حركة متخلعة ولا غمزة من طرف خفى .

أهداف نظيفة وسلوك نظيف .

* * *

وعواطفها ؟ هل تملكها ؟

ألا يثور في نفسها الحنين الفطرى إلى الجنس الآخر ؟ ألا يقع نظرها على رجل معين ، فيحسن في نظرها ، فتميل إليه ، فتهاوه ؟ فما موقفها من المجتمع المسلم حينذاك ؟

الإسلام نظام جاد . .

وليس معنى الجد هو العبوس والتقطيب في قضاء الأمور ! فالرسول الكريم هو الذى يقول : « روحوا قلوبكم ساعة فساعة » ^(١) وكان - صلى الله عليه وسلم - ، لا يراه الناس إلا باشا مبتسما في الوجوه .

وإنما المقصود هو الجد في أخذ الأمور بلا رقاعة ولا خلاعة ولا التواء .

والعواطف في نظر الإسلام ينبغي أن تكون جادة ، ويحترمها على أنها كذلك .

حب جاد وإعجاب جاد وميل جاد . . ومشاعر جادة .

يحكى القرآن عن ابنة شعيب ، ابنة نبي ، إعجابها بموسى عليه السلام ، وتعبيرها لأبيها عن هذا الإعجاب في بساطة جادة لا تصنع فيها ولا تخلع ولا طراوة ولا تكسر ولا التواء : « يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين » ^(٢) فيزوجها إياه .

والذى يرويه القرآن هو النموذج الذى يجب للناس أن يعيشوا فيه . فهو لم يستنكر ، ولم يشأ أن يعبر عن إعجابها بغير لفظه الصريح ولم يجعله سرا تكتمه الفتاة في قلبها ولا تبوح لأهلها به .

(٢) سورة القصص « ٢٦ » .

(١) رواه أبو داود عن أنس .

والأسرة في المجتمع المسلم أسرة مسلمة . أى أسرة متفاهمة متعاونة مترابطة يسودها الود والوثام ، وتلتقى على الصراحة والاحترام . وفي هذا الجو الودود العطوف ، التنظيف الصريح ، تستطيع الفتاة أن تذكر عواطفها الجادة النظيفة التي لم يدنسها شيء ، فتكون موضع التقدير أو النصيحة أو التفاهم على كل حال .

* * *

أما الدنس فلا يرضاه الإسلام .
الدنس الذى يسمونه الحب ، وهو لهفة جنس ظامئى ملهوف هذا لايلتقى مع فكرة الإسلام عن « الإنسان » .

الإسلام لا يحقر الدوافع الفطرية ولا يكتبها ولا يستقذرها . ليس الجنس دنسا فى ذاته ولا هو حرام^(١) . ولكن شرط الإسلام هو رجوع الإنسان إلى الفطرة : قبضة الطين ونفخة الروح . لا هذه وحدها ولا تلك . لا جسد ظامئى حيوان . . ولا روح متبئلة مترهبة . كلاهما حرام .

وهو يبيح الزواج ويدعو إليه ويحببه للناس .
وفى الزواج يجد الجنس منصرفه الطبيعى ، ولكنه يجده على طريقة الفطرة السليمة . يجده مرتبطاً بهدف أعلى ، وليس فى ذاته كل الهدف المطلوب .

* * *

وهنا نصل إلى مشكلة الشاب الأعزب والشابة العزباء .
مشكلة « الحرمان » . . ما حلها فى الإسلام مادمتنا نحرم كل العلاقات الجنسية غير الزواج ؟

(١) انظر بالتفصيل فصل « المشكلة » فى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » .

الحل الذى يراه الإسلام هو مجموعة من المراحل ومجموعة من الإجراءات .

فهو أولاً : ينظف المجتمع من دواعى الإثارة المجنونة التى تستفز دماء الشباب وتجعل صبرهم على الجنس من أصعب الأمور . فلا عرى فى الصحافة ولا الإذاعة ولا السينما ولا المسرح ولا القصة ولا الطريق .

وهو ثانياً : يجعل للحياة أهدافاً جادة تستنفد الطاقة النفسية وترفعها عن الدنس المحظور .

وهو ثالثاً : يستنفد الطاقة الحيوية الفائضة فى مشغلة جسدية نفسية دائمة ، فيشغل الفتى بالرياضة (كالفروسية والجهاد) ويشغل الفتاة بتدبير المنزل ، وكلاهما جهد يرفع المشاعر ويشغلها إلى حين .

وهو رابعاً : يجعل العبادة جزءاً من النشاط الحى للإنسان ، ويجعل ذلك وسيلة للتسامى والتصعيد .

ومع ذلك كله فهو يعلم أنها حلول مؤقتة لا تصمد إلى أمد طويل . فيقرر التبكير فى الزواج ، لتقصير فترة البطالة الجنسية التى تدفع إلى الشرور .

ولكن صرحاء فى هذه ، كما طلبنا الصراحة فى بقية الأمور .

إن الظروف الاجتماعية والاقتصادية الحالية المعقدة لا تسمح بالتبكير فى الزواج .

هذا حق . . ولكنه ليس حقاً ملزماً ، ولا واقعاً غير قابل للتغير .

الشباب فى أمريكا يتكسب وهو فى المرحلة الثانوية فيحصل على مصروف يده . ويتكفل بنفسه نهائياً بعد ذلك فيتزوج إذا أراد . ويدخل الجامعة وينفق على كل ما يعرض له من الشئون . ونظام التعليم ميسر هناك بحيث يمكن الطالب أن يتعلم ويعمل ، ولا يتعطل عن هذا أو ذاك .

والذى يستطيعه البشر في أمريكا يستطيعه البشر المسلمون .
ونحن على أى حال نتحدث عن المجتمع المسلم ولا نتحدث عن الواقع
الحالى الذى يستحيل فيه تنفيذ جزئيات الإسلام .
والمجتمع المسلم يكيف اقتصادياته بالطريقة التى تتمشى مع مبادئه
الخلقية ومبادئه الروحية^(١) ، فتتلاقى هذه وتلك ، ولا يصبح الإنسان ممزقاً بين
مطالبه المادية والتكاليف التى يكلفه بها الدين .
والتنظيم الاقتصادى - على صعوبته والجهد الضخم المتواصل الذى يبذل
فيه - ليس مستحيلاً ولا متعذراً حين تتجه النية إليه ويرجح الإيمان بضرورته .

* * *

أما الزواج فليست الفتاة فى حاجة لأن تنزل إلى السوق تعرض نفسها كما
يعرض الرقيق على الطالبين . الإسلام أكرم لها من ذلك وأصون . ولقد أعطاها
كل حقوق الإنسان كاملة . أعطاها الحق فى أن تختب لنفسها إذا أرادت ،
وأعطاها الحق فى قبول الخطيب أو رفضه ، وأوجب أخذ موافقتها على الزواج
وإلا فهو باطل ومردود .

ولكنه يجب أن يتم كل شىء فيه على نظافة .

وما دامت الفتاة تخرج وتتعلم وتعمل إذا أرادت تلبية للظروف المحيطة بها ،
فلا خوف من أن تظل حبيسة لا يراها رجل . ولم يحدث ذلك قط فى التاريخ
حتى فى عهد الحجاب التركى الكامل الذى وضع المرأة فى « الحریم » .
وحيث يكون المجتمع نظيفاً فلا بد أن يتزوج الرجال . . ماداموا لا يجدون

(١) انظر بالتفصيل كتاب « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » .

المتعة الدنسة الميسرة التى تغنيهم عن الزواج . وعند ذلك لا توجد أزمة الزواج الحالية التى تضطر أن تنزل بنفسها إلى السوق لصيد الأزواج .
ومن ثم فهذه المشكلة التى تقلق المجتمع الدنس فى المدينة تذهب من تلقاء نفسها حين نكون مسلمين .

* * *

وفقرة الخطبة فترة كافية لدراسة الأخلاق والطباع والشخصية ، وليس من الضرورى أن تكون الدراسة بالقبليات المختلطة فى الخلوات . فذلك تحايل للمتع الجنسى باسم الدراسة والاختبار !
إن من حقه وحقها أن يتلاقيا ويتعارفا ويتدارسا الأمور . ولكن فى حشمة جادة وفى حضرة المحارم ، لا فى خفاء عن العيون .
هكذا يكون الجد فى أخذ الأمور .

فإن عقدا العزم فلهما أن يرتبطا . . ومنذ ذلك الحين تصبح زوجته ، ويستطيع إن أراد أن يستمتع معها بأحلام الخطبة السعيدة التى يحرص عليها الشباب فيؤجلان البناء إلى حين ، ويخرجان ويتنزهان ويستمتعان فى حل من الله ورسوله والمؤمنين .

* * *

وحين تتزوج وتحمل وتلد فشغلها الأول هو منزلها ، ورعاية التناج البشرى الجديد .

ولكن ذلك لا يمنعها من النشاط الاجتماعى الجاد المخلص النظيف فالإسلام لا يطبق أى لون من ألوان الدنس ، سواء كان هذا الدنس رياء تتظاهر

به النفس ، أو فساداً في الأرض ، أو انحرافاً عن سواء السبيل .

وحيث تخرج المرأة من بيتها لتتضرع حفلة راقصة . وحيث تخرج لتلقى الرجال الأعراب ليغازلونها ويطروا جماها . وحيث تخرج ليداع عنها أنها تعمل في الميدان الاجتماعي . وحيث تخرج لتزور صديقاتها ليغتنب الناس . وحيث تخرج لنشر الفساد في الأرض من أى سبيل ، فخروجها ذلك حرام ، ولو رضى به الزوج أو دفعها إليه .

وحيث تخرج لتتعاون مع بنات جنسها في إصلاح المجتمع وإقامة العقيدة الصحيحة وتربية النفوس ومكافحة الفساد والجهاد في سبيل العقيدة . . . فخروجها حلال مادامت لا تتبرج ولا تخرج عن الحدود .
ليست العبرة بالخروج ذاته ، وإنما بالهدف من ورائه وطريقة السلوك .

* * *

ذلك وضع المرأة المسلمة في المجتمع المسلم . وذلك هو التحرير الحقيقي للمرأة . .

وحيث تتحرر المرأة يتحرر المجتمع . . فإنها هي مربية الأجيال .

أما التحرير المزعوم الذي وصلت إليه المرأة في الغرب ، والذي ينادى به دعاة التحرير في الشرق الإسلامي بدافع التقليد . . فهو مسخ للمرأة ، ومسخ للرجل ، ومسخ للأجيال .

وعلى أى حال فقد كانت للغرب ظروفه التي شرحناها من قبل ، والتي تفسر هبوطه وانحرافه . وقد أعفانا الله من هذه الظروف الفظيعة المدمرة ، أفلا نحمد الله بالرجوع إليه والسير في الطريق الذي ارتضاه ؟

وإن المرأة في الشرق الإسلامي لفي وضع سيء غاية السوء . وضع ينبغي العمل على تغييره وتجنيد كل القوى لإحداث هذا التغيير . ولكن فلنعرف مواطن العلة لنعرف وسائل العلاج .

المرأة في الشرق الإسلامي ، فيما عدا القلة القليلة النادرة . . امرأة حيوان . . حيوان في القرى والأرياف مغلف بالقدارة الحسية والمعنوية . . والعبودية للرجل ، وللأوضاع القائمة في المجتمع المتأخر البليد . . وحيوان في المدينة ، نظيف منسق رشيق متراقص ، ولكنه مع ذلك حيوان . حيوان مستعبد للشهوات .

فيما عدا القلة القليلة النادرة . . المؤمنة بالله على بصيرة . . والمؤمنة بنفسها عن طريق الإيثار بالله .

في الريف امرأة جاهلة مستعبدة لا كيان لها ولا حقيقة . يستعبد لها الرجل والدأ وأخاً وزوجاً وقريباً . . إلا أن يكون لها ملك . . وعندئذ تشعر بنفسها وتعزز بوجودها . . على طريقة الحيوان .

وفي المدينة امرأة منطلقة من كل قيد . وتزينت في ملابسها وتعرت . . وصادقت الرجال ، ألواناً مختلفة من « الصداقة » . واشتغلت عاملة وموظفة . وصار لها دخل من كسب يديها . وأصبحت - في الظاهر - مستقلة عن الرجل متحررة من نفوذه . . ثم . .

ثم استعبدت نفسها - باختيارها - لشهوة الحيوان . فعادت إلى الرجل مرة أخرى ، لا كريمة على نفسها ولا مستعلية ، وإنما تدفعها الغريزة الهابطة فتسلك سلوك الحيوان .

ومن ثم لم تتحرر . .

إنها فقط انفلتت من القيد . وما زال في دمائها وكسة العبيد .
الحرية الحقيقية يوم يستعلى الإنسان - بجنسيه - على الضرورة القاهرة ودفعة
الشهوات ، ويحولها إلى سلوك حر فيه ترفع وفيه اختيار .
فهل هذه الفتاة المتزينة تملك نفسها أن تخرج بلا تزين ولا أصباغ ولا إبراز
لكامن الإغراء ؟
هل تملك نفسها أن تخرج إلى الطريق لا يهملها ولا يشغلها أن تنصيد نظرة
معجبة أو نظرة هابطة ؟
إن كل امرأة تحب أن تكون موضع الإعجاب ، أو في القليل لا تكون موضع
النفور .

وذلك شعور طبيعي لا حرج عليه ولا انحراف فيه .
ولكن الإنسان يضبط دوافعه ولا ينساق معها إلى آخر الطريق .
وفرق بين المرأة التي تحب أن تكون موضع الإعجاب وموضع الاحترام
بكيانها كله ، وبين التي تنحصر في ظاهر الجسد ، وتستجدي الإعجاب
بالإثارة والإغراء .

الأولى متحررة تملك كيانها وتفرضه على الآخرين ، والأخرى عبدة لما في
كيانها من الدوافع وعبدة للآخرين .

إن التحرر الحقيقي عملية شاقة عسيرة ، ذات تكاليف ضخمة في المشاعر
والسلوك والأفكار . أما التحرر المزيف ، بمعنى الانفلات من القيد ، فما
أسهل وما أيسر . . يوم يتحول المجتمع إلى مجموعة من بنى الحيوان !

والمقياس الحقيقي لقيمة المرأة « المتحررة » هو الصورة التي تأخذها في حس
الرجل الذي يعيش معها في المجتمع . فكيف ينظر الرجل إليها ؟ هل هو

« يحترمها » حقاً . أمامها ومن ورائها ؟ أم هو يتشهاها ، ويتخيلها في حسه متعة فراش ؟

إن هذا الرجل منحط حقاً . إنه - مثلها - رجل حيوان .

ولكنها هي التي تملك - حين تؤمن بنفسها عن طريق الإيمان بالله - أن ترفع قيمة نفسها ، وأن تفرض على الرجل وجودها المترفع المتحقق الكيان . أما وهي تعرض نفسها عليه جسداً مزوقاً مزيناً متراقص الحركات ، فلا تنتظر أن يكون لها في حسه مكان أكبر من متعة الفراش .

* * *

وحين تتحرر المرأة ذلك التحرر الحقيقي ، يتحرر الرجل ، ويتحرر المجتمع ، وتتحرر الأجيال .

وذلك هو الهدف الأكبر الذي يهدف إليه الإسلام .

وفي المجتمع المسلم تنحل كثير من العقد التي تملأ النفوس اليوم . وتنحل - من نفسها - كثير من المشكلات .

وحقاً إن لكل مجتمع مشكلاته . . ولكن نوع المشكلات يختلف باختلاف درجة « الرقى » وطبيعة الأهداف .

المشكلات التي يواجهها المجتمع المسلم هي المحاولة الدائمة للثبات على العقيدة والارتفاع على الضرورات . وهو جهد ناصب لا يترك الإنسان في راحة ، ولا يترك له فرصة يغفل فيها لحظات . . ولكنه جهد صاعد نبيل . يدفع بالبشرية إلى أعلى في ذات الوقت الذي يدفع بها إلى الأمام .

والمجتمع المنحل له عقده ومشاكله وعذاباته . . ولكن الجهد فيه جهد مُضِيع لأنه يذهب في طريق الشيطان . ونظرة إلى العالم الذي تسيطر عليه

الحضارة الغربية اليوم ، العالم المهتد بالدمار فى كل لحظة ، كفيلة بالرد على كل سؤال !

وهذا المجتمع لا يخص المسلمين وحدهم . . وإنما هو يشمل كل من يوجد فيه من بنى الإنسان .

هو بالنسبة للمسلمين عقيدة . وبالنسبة لغيرهم نظام . نظام يعيشون فى ظله آمنين صاعدين ، وهم فى نجوة بعقيدتهم الخاصة لا يمسهآ مساس .

* * *

وبعد...!

وبعد فأنا أعلم أن الناس لن يصبحوا مسلمين بمجرد قراءة هذا الكتاب
ولا ألف كتاب !

كلا . فلم يكن الاستعمار الصليبي لاهياً خلال قرنين من الزمان !
لقد وقع العداء بين الإسلام وبين الصليبية والصهيونية منذ ولد الإسلام .
منذ قامت دولته في المدينة على يدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .
وظلت الصليبية والصهيونية تكيدان للإسلام منذ تلك اللحظة . .
وستظلان تكيدان له كل لحظة حتى يرث الله الأرض ومن عليها . والله رب
المسلمين ورب الناس أجمعين هو الذى يقول : « ولن ترضى عنك اليهود ولا
النصارى حتى تتبع ملتهم ^(١) » « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم
إن استطاعوا ^(٢) » .

وقد تغلب الإسلام في جولات كثيرة، وتغلبت الصليبية والصهيونية في
جولات .

وفي القرنين الأخيرين خاصة ، حين تفرق العالم الإسلامى وتمزق، حين
جهد وتجهز وضعف عن التقدم، لم تتوان الصليبية والصهيونية في انتهاز الفرصة
السانحة، وانقضتا لتمزيق «الرجل المريض» ونهشه بعد أن يتناثر مرقاً متفرقات .

(٢) سورة البقرة « ٢١٧ » .

(١) سورة البقرة « ١٢٠ » .

ومن كان يظن أن الغرب قد طمع في الشرق الإسلامي من أجل موارده الطبيعية، أو موارده البشرية أو رغبة في إيجاد أسواق لتصريف فائض بضائعه، أو رغبة في استغلال فائض « رأس المال المالى » الذى يبحث عن زيادة الأرباح . .

من كان يظن أن ذلك هو الذى دفع الغرب لاستعمار الشرق الإسلامى فهو ساذج مضلل مخدوع . . مخدوع بالدعاية الصليبية ذاتها التى صورت الموقف على هذه الصورة لتخفى عن الأنظار هدفها الأصيل !

ومن كان فى شك من أنها كانت حملة صليبية صهيونية موجهة ضد الإسلام بعد القضاء على الإسلام واجتثاث جذوره . . فليقرأ التاريخ !

ليقرأ فى كتاب « بروتوكولات حكماء صهيون » كيف وضع « التكتيك » اليهودى على أساس تدمير العقيدتين النصرانية والإسلامية ، بكل وسائل التدمير ، ومن ضمنها نشر آراء فرويد فى أوسع نطاق ممكن ، ونشر تعاليم ماركس . وكيف وضع التكتيك لتدمير العالم الإسلامى خاصة بإقامة « الوطن القومى » لليهود فى قلب العالم الإسلامى ليكون مركز الوثوب ونقطة الانطلاق للتدمير .

وليقرأ كيف قام رئيس الوزارة البريطانية يوم الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ يقول فى مجلس العموم ، وهو يمسك بالمصحف فى يده . : إنه طالما بقى هذا الكتاب فى أيدي المصريين فلن يقر لنا (للانجليز) قرار فى تلك البلاد .

وليقرأ كيف اختار الإنجليز قسيساً متخرجاً فى مدرسة اللاهوت ليضع مصر البرامج التعليمية ويشرف عليها . فكان دنلوب مستشار المعارف المصرية

وواضع سياستها ، ليخرج من المدارس المصرية أجيالا لا تعرف عن الإسلام إلا الشبهات !

وليقرأ كيف كان الأب « زويمر » في مؤتمر المبشرين الذى اجتمع بالشرق الأوسط فى مبدأ هذا القرن ، يرد على كلمات المبشرين الذين قاموا يعلنون إفلاس مهمة التبشير وإخفاقها فى أداء رسالتها ، إذ أنه لا يستجيب أحد من المسلمين للتبشير إلا أحد اثنين : طفل مخطوف من أهله وهو صغير فيرى على النصرانية وهو جاهل بأصل عقيدته ، أو رجل معدم لا يجد سبيلا للعيش إلا الدخول فى النصرانية ليحصل على لقمة الخبز ، ويظل من المشكوك فيه أنه غير حقيقة عقيدته . . قام الأب «زويمر» مقرر المؤتمر يومئذ يقول : إن الخطباء قد اخطأوا أيا خطأ . وإنه ليس الهدف الحقيقى للتبشير هو إدخال المسلمين فى النصرانية . وإنما الهدف هو تحويل المسلمين عن التمسك بدينهم . وفى ذلك قد نجحنا نجاحاً باهراً عن طريق مدارسنا الخاصة ، وعن طريق المدارس الحكومية التى تتبع مناهجنا .

وليقرأ فى كتاب « الغارة على العالم الإسلامى » وهو من تأليف رجل فرنسى ، كيف حرص المبشرون والمستعمرون على إثارة « قضية المرأة » فى كل بلد حلوا فيه ، والدعوة إلى « تحرير » المرأة وإخراجها سافرة إلى المجتمع لكى تنحل الأخلاق وتتحطم المناعة ضد الاستعمار .

وليقرأ فى كتاب « الاستعمار والتبشير » تأليف عمر فروخ شرح الوسائل التى يستخدمها الاستعمار والتبشير . وكيف يتلازمان دائماً ، ويتفاهما دائماً . ويستمدان تعليلاتها من مصادر واحدة على الدوام .

وليقرأ فى كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » تأليف « ليوبولد فايس » كيف كان المستشرقون الذين يأخذ مفكرو العالم الإسلامى أقوالهم على أنها

قضية منزلة ، يصدقونها ويكذبون بها القرآن ، كيف كان هؤلاء المستشرقون مبشرين نصارى يغمسون البحوث « العلمية » فى سخائم التعصب الدينى الذميم .

وليقراً فى البحث المعجب الذى كتبه الدكتور محمد البهى فى كتاب « الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » :

« فكيف يستمد الغرب نفوذه السياسى على الشرق الإسلامى ؟ »

« وكيف يبقى تخلف المسلمين ؟ .

« وكيف تنفس الصليبية عن حقدها ؟ .

« هذه الأسئلة الثلاثة يرتبط بعضها ببعض فى تصور الغرب المسيحى المستعمر ، ويحرص على أن تبقى متصلة بعضها ببعض فى مباشرة سلطته هنا فى الشرق ، على أن وجود أى واحد منها وتمتعه بالبقاء كفىل بتمكين الوجود للأمرين الآخرين .

« لهذا ، منذ أن باشر النفوذ الغربى سلطته فى رقعة الشرق الإسلامى ، ابتدأ العمل على تخلف المسلمين وعلى تنفيس الحقد الصليبي . وليس هناك طريق آخر لتحقيق هذه الغاية سوى تناول «مادة التوجيه المحلية» وجعلها غير صالحة . ولم يكن هناك فى توجيه الشرق الإسلامى سوى الإسلام والتراث الإسلامى الذى خلفه المسلمون فى شرح إسلامهم . وإفساد الإسلام والتراث الإسلامى إذن ، غرض أولى للمستعمر الغربى . واختار وسيلته لذلك فيما أبرزه من المفارقة بين الغرب والشرق من تقدم الأول وتأخر الثانى . وابتدأ «العلم» وابتدأت «الدراسة» هناك تبحث عن أسباب هذه المفارقة . وتركزت الأسباب أخيراً فى المقابلة بين المسيحية والإسلام .

« المسيحية دين المتقدمين ، والإسلام دين المتخلفين !

« وهنا قام بعض المسلمين ينادى باتباع الغرب فيما وصل إليه من حضارة صناعية وفكر طبيعي . ولكن لا يكون هذا الاتباع مثمراً للشرق الإسلامي إلا إذا اتخذ موقفاً من الإسلام يقربه من المسيحية ! » .

* * *

نعم . من كان في شك من الحملة الصليبية الراهنة من الشرق والغرب ، ومن كان في شك من الحملة الصهيونية الراهنة . . . فليقرأ التاريخ !

وسيعرف - حين يقرأ التاريخ - كيف حرصت الصليبية والصهيونية على تنفير المسلمين من دينهم ، وتشويه صورته في أذهانهم ، وتصويره على أنه تأخر وانحطاط وجمود ورجعية ينبغي للإنسان أن يسرع بالانسلاخ من معرته ، والانفلات من جهالته ، والاعتناق من أوزاره .

وسيعرف كيف كان الدور المنظم المدروس المنفذ بدقة لتحطيم الشرق الإسلامي من قواعده ، بتقويض دعائم الدين ، وحل عرى الأخلاق ، والإطاحة بالتقاليد ، وتخريج « دعاة » من بين المسلمين أنفسهم ينادون بتحطيم الدين والأخلاق والتقاليد ، ودفعهم إلى المناصب الكبيرة ومراكز التوجيه ، لكي تستر وراءهم الصليبية والصهيونية ، وينخدع المسلمون بأقوالهم ، على أنهم مسلمون . . مجدودون !

وسيعرف أخيراً أن جهود قرنين كاملين من الزمان ، وما ترسب في نفوس المسلمين من أثر هذه الجهود ، لن يقضى عليها صيحة عابرة في كتاب !

كلا ! إنني أعلم أن الناس لن يصبحوا مسلمين بمجرد قراءة هذا الكتاب ولا ألف كتاب .

ومع ذلك فواجب الكاتب المخلص أن ينبه الناس ويطلق النذير .
إننا نواجه أعداء لن يكفوا لحظة عن عدائنا ومحاوله القضاء علينا . نواجه
الصليبية العالمية والصهيونية العالمية . ممثلة في الاستعمار الغربى أو الشرقى .
وعمثلة في إسرائيل .

ونحن فى حاجة إلى كفاح دائم لمواجهة هؤلاء الأعداء .
وليس الكفاح بالتمنى ، وبالحماسة الجوفاء فى داخل النفوس .
الكفاح عرق ودماء ودموع . . الكفاح تضحيات دائمة بالنفس والمال
والجهود .

والأمم المنحلة لا تعرف الكفاح . .

لابد من عقيدة . . لابد من عقيدة . . لابد من عقيدة .

لابد من عقدة متينة محكمة الرباط ، تظل تقاوم الضغط طويلا قبل أن
تنحل . أما إذا ربطت ربطة سهلة خفيفة فإنها من أول جذبة تنحل وتلس
القياد .

والأمم تعيش على الجيل الصلب عدة أجيال قبل أن تصل إلى الهاوية .
ومن ثم يؤدي هذا الجيل دوره مضاعفاً ، لنفسه وللأجيال التالية .

ولكنها حين ترفض من الأصل مبدأ الصلابة ، وتظنه تزمنا بلا ضرورة ،
فإنها تظل تهوى إلى المنحدر بلا عوائق ، وتنتهى فى النهاية إلى البوار .

ونحن - بصفة خاصة - أحوج الناس إلى عقيدة .

إننا - بلا عقيدة - شعب سهل رخو متميع سريع الانحلال .

وبالعقيدة نصنع المعجزات . .

وتاريخنا كله هو هذه الحقيقة .

نتمسك بالعقيدة فترة أو نفىء إليها فتدب فينا روح البطولة وروح الجد وروح الكفاح . ونصنع في فترة قصيرة من الزمن أعاجيب تحتاج في صنعها إلى أجيال .

ونتخلى عن العقيدة أو نتبلد عليها فإذا نحن فئات متهافت لا قوام له يمسكه عن الانهيار .

وشعوب أوروبا ، المنحلة الأخلاق ، المبتعدة عن العقيدة ، ستذابو حتما وتنتهى إلى البوار حسب سنة الله في الأرض : « ولن تجد لسنة الله تبديلا » ولكنها - لأسباب متعددة في بيئتها وبنيتها - بطيئة التحلل شديدة الإصرار . يتبين ذلك في قدرتهم الهائلة على الإنتاج وجلدهم على العمل . العامل هناك والموظف يشتغل ست ساعات كاملة (فيما عدا نصف ساعة للراحة وتناول الطعام والشراب) ست ساعات من العمل الحقيقى ، لا يقرأ صحيفة ولا يحدث جاره ولا يروى نكتة ولا يعلق على خبر ولا ينصرف لحظة عن الإنتاج .

فمن منا يفعل ذلك أو يطبقه ؟

والعامل الإسرائيلي الذى يجاهد العرب ويغتصب أوطانهم ، يعمل ست ساعات متوالية بأجر منخفض ، ثم يتطوع بساعات أخرى من العمل دون مقابل ، لزيادة الإنتاج .

فمن منا يفعل ذلك أو يطبقه ؟

هؤلاء هم أعداؤنا فلنعرفهم .

وينبغى أن نكون نحن أشد جلدأ وأقوى عزيمة لكى نصمد في كفاحهم ونغلبهم .

ونحن مستطيعون ذلك قطعاً بإذن الله ، لأننا جربنا أنفسنا من قبل
فصنعناه .

ولكننا في ذلك نحتاج إلى عقيدة . نحتاج إلى العقدة الصلبة التي تقاوم
الضغط طويلاً قبل أن تنحل . نحتاج إلى النواة الصلبة التي لا تنكسر ولا تلين .
نحتاج ألا نكون متميعين رخوين أطرياء . .

نحتاج أن تحتفى العيون الزائغة والنفوس الشاردة والضحكات الرقيقة
والمشية المتخلعة والكلمات البذيئة والمشاعر المتلمظة على متاع الحيوان .
نحتاج أن تكون لنا أخلاق وأعراض وتقاليد .

نحتاج أن تكون نساؤنا - منشئات الأجيال - نفوساً آدمية لا قطعاً من
اللحم الفائر والجسد الشهوان .

نحتاج أن ترتفع مشاعرنا من وهدة الجنس . وتكون عواطفنا جادة وأفكارنا
جادة ونفوسنا نظيفة .

نحتاج إلى شباب مستقر يقدر على بذل الجهد ويقدر على الكفاح . ولن
يقدر على ذلك وهو يقضى وقته وجهده متشرداً في الشوارع يحوم كالكلاب .

* * *

وأنا أعلم البواعث العديدة التي تنفر الشباب من الإسلام . وأعلم أن
الناس لن يصبحوا مسلمين بمجرد قراءة هذا الكتاب .

ومع ذلك لا يخامرني شك قط في أن المستقبل هو مستقبل الفكرة
الإسلامية .

ليس من الضروري أن أشهد بنفسى تحقق الفكرة في المستقبل القريب .

ولكن عمر الأمم لا يقاس بعمر الأفراد ، ولا يقاس بالمدى القريب .
وأنا أحس - ولا يخامرني شك - أن الإسلام ليس دين هذه البقعة وحدها ،
ولكنه سيكون غذاءً لنظام البشرية . . نظام البشرية ولو لم تعتنق دين الإسلام .
لقد انحرفت أوروبا عن العقيدة ووصلت في ذلك إلى نهاية القرار .
ولقد جربت الحضارة المادية الكافرة الملحدة المتبعدة عن الله .
جربتها أول مرة مع الرأسمالية . .
وكفرت بالرأسمالية . . لم تجد فيها النظام المنشود . .
وجربتها بعد ذلك مع الشيوعية . .
وسوف تكفر بالشيوعية في الغد القريب أو الغد البعيد .
سوف تجد أن الشيوعية لا تعطيهما الأمل المنشود .
إن أعطتها الطعام والمسكن والجنس . . . « المطالب الرئيسية » التي
حددها « ماركس » في المانيفستو (الإعلان الشيوعي) . . فإنها لا تعطيهما
الأمن والراحة وغذاء الروح .
ستظل البشرية تحس أن شيئاً - ما - في كيانها لم يشبع بعد . لم تشبعه
الشيوعية ، ولم تشبعه الحضارة المادية الكافرة الملحدة المتبعدة عن الله .
عندئذ ستترد إلى العقيدة .
ستترد إلى نظام يشمل واقع المادة وواقع الروح . نظام يشرع للأرض وهو
متجه إلى السماء . نظام يوحد بين شقى هذا الكائن الأدمى : قبضة الطين
ونفخة الروح .
وهذا النظام هو الإسلام .

لا يوجد غيره في الأرض يشتمل على هذه الحقيقة .

وليس من الضروري أن يعتقد الناس في الغرب العقيدة الإسلامية .

ليس من الضروري أن تصبح أسماؤهم « أحمد » و « محمد » و « محمود » .

ولكنهم سيفيئون إلى الفكرة الإسلامية بحكم الضرورة . بحكم التجربة
المرّة التي عانوها قرنين من الزمان ، وما يجد من أيام ، فانتهدت بهم إلى الرعب
القاتل والدمار الرهيب .

وأولى بالمسلمين ، وهم يملكون هذا الزاد الضخم ، أن يكونوا أول من
يفيء إلى هذه العقيدة ويتنفع بها فيها من طاقات .

أولى بهم أن يعودوا إلى مركزهم التاريخي الأول : لا في ذيل القافلة ولكن في
مقدم الزمام .

وفي استطاعتهم أن يكونوا كذلك حين يؤمنون بالله ويتخلقون بأخلاق هذا
الدين .

* * *

الفهرس

٥	مقدمة
١١	جولة مع التاريخ
٥١	حقائق وأباطيل
٩٧	فلنكن صرحاء !
١١٧	حين نكون مسلمين
١٥٥	وبعد !

رقم الإيداع : ٨٧ / ٤٩١١

التقييم الدولي : ٩٩-٥ . ١٤٨-٩٧٧